

راس شيطان
رواية

obeikandi.com

اسم الكتاب: راس شيطان
تأليف: وائل عبد الرحمن
تصحيح لغوى: عزة أبو الأنوار
رقم الإيداع: 2014/19842
الترقيم الدولي: 978-977-6376-67-0



إشراف عام:
محمد جميل صبري
نيفين التهامي

دار كيان للنشر والتوزيع - 22 ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة - الهرم
محمول: 01005248794 - 01001872290 - أرضي: 0235688678
www.kayanpublishing.com - info@kayanpublishing.com
kayanpub@gmail.com

© جميع الحقوق محفوظة، وأي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة
كانت ورقية أو إلكترونية أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذن كتابي من
الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

راس شيطان
وائل عبد الرحمن
رواية

obeikandi.com

تمهيد

لم تعمل المظلة بشكل جيد، فكان اصطدامه بالأرض عنيفًا تلك المرة، للدرجة التي أفقدته الوعي لدقائق أفاق بعدها مذعورًا.. ينزف.. يتصبّب عرقًا ويكسو الغبار وجهه وملابسه الممزقة. يتحامل ويحاول النهوض.. فيعمي عينيه وهج قرص الشمس ويقع ثانية. يدفن رأسه في رمال الصحراء الحارقة، ويضرب الأرض بقبضتيه، غير مصدق أن ما فعله وملاه سعادة وفخرًا منذ قليل، يتحول الآن إلى أبشع كابوس ممكن.. كابوس مرئي ومسموع وملموس، كابوس يتحقق ويملؤه عارًا يدفعه دفعًا للانتحار.

يتعالى صوت بكائه ونحيبه ندماً وقلقاً مما هو آت، إلى أن سمعهم قادمين بالفعل.. ماكيناتهم وجنازير دباباتهم ومدركاتهم تقترب ببطء.. وضجيجها يعلو شيئًا فشيئًا.. ماكينات الموت تدور وتقترب.

اللجنة! بتلك السرعة؟!

يرفع رأسه فتمرق رصاصة بصفيها الحاد جوار أذنه. يلتصق بالأرض.. يزحف ويلهث. يقتربون وتمرق رصاصتان أخريان فوق

رأسه. هم أسرع منه كثيرًا. يملؤه الندم لا الخوف، على قومه لا على نفسه. يرتفع صوت ضجيجهم بشدة فيصم أذنيه. يتحامل وينهض ويجرّ ساقه المصابة، وتتطاير من حوله رصاصاتهم الغزيرة. يظن أنه يجري، لكنه يتقاذز كالأعرج وهو ينزف والمسافة بينه وبينهم تقترب بشدة.. إلى أن أصبح في وسطهم تمامًا، لكنهم يمضون في طريقهم كأنه سراب أو هباء منشور.. ليدرك أنهم لا يرونه.

ويدرك أن دوره في تلك الجولة قد انتهى.

وأنه فقط سيشاهد نتيجة فعلته الحمقاء.

وأنهم متجهون كالشؤم، بذلك الجيش وتلك النية السوداء، إلى قلب وطنه.. إلى القاهرة.

في قاعةٍ خُماسيَّةٍ ضُخمةٍ خافِئةٍ الإضاءة، ذاتَ سَقْفٍ مرتفعٍ تملؤه زخارف، ورُسُومات تبدو كتسجيلٍ مَلَحمةٍ ضارِيةٍ بينَ جيشينَ عَظِيمينَ يتنازَعانَ على خَريطة، كان "الأَنُور" جالِساَ بهيئةٍ ووقارٍ على كُرسيٍّ ضُخْم، يزدانُ ظَهرُهُ ومِسنَداهُ بنقوشٍ من أحرفٍ عربيَّةٍ مُتداخلة، مُمسكًا بَريشةٍ يَخطُّ بها في كتابٍ ضُخْمٍ موضوعٍ على طاولةٍ مهيبَةٍ سميكةٍ من خشبٍ عتيق، مرفوعةٍ على أعمدةٍ رخاميَّةٍ بيضاءٍ راسِخةٍ في أرضيةِ القاعةِ الخشبيَّةِ بجذورٍ ذهبيَّةٍ مجذولة.

يَدخُلُ "واعظ" القاعةَ بِخُطواتٍ حَثِيثَةٍ، احترامًا لحَضرةِ "الأَنُور" وهيبَةِ المَكان، وكانَ صَوْتُ وَقَعِ قَدَمَيْهِ على الأَرْضِيَّةِ الخشبيَّةِ هو الصَوْتُ الوَحيِدُ في المَكان. يتخَذُ "واعظ" مَكانَهُ ووقُوفًا على مِساَفةٍ مناسبةٍ من مُنْصَدَةِ "الأَنُور"، عاقِدًا كَفيهِ أَمَامَهُ في صَمْت، ناظرًا إلى مَوْضِعِ قَدَمَيْهِ وظَهرِهِ مُنْحَنِيًا انْحِناءَ خَفيَّةٍ إجلالًا، ولم يَنتطقْ بِحَرفٍ، بينما دخانُ البُخُورِ يَنسابُ من أَمَكانٍ كَثيرَةٍ نائِراَ رائحةً زَكيَّة.

كَثيرٌ مِنَ الوَقتِ مرَّ على هَذهِ الحَوالِ، ولم يَرفَعِ "الأَنُور" عَينِيهِ

-ولو مرّة- عن أبيّ من الكتاب الذي يكتبُ فيه، أو المحبرة التي يغمسُ فيها ريشته كلّ حين، ولم يتململُ ”واعظ“ في وقفته ولم يغيّرَ فيها من شيء، اللهم إلا من نظرةٍ اختلسها إلى ”الأنور“ ليرى نورَ الشمعة يتراقصُ على قسَماتِ وجهه وتجاعيده ولحيته الطويلة البيضاء الناعمة، وعمامته الضخمة البيضاء ذات الحَجَر الكريم الأخضر في منتصفها فوقَ جبهته، قبل أن يعيدَ نظره إلى موضعِ قدّميه من جديد.

أخيراً.. بدا أنّ ”الأنور“ كمن يكتبُ الكلمات الأخيرة في الكتاب، وبعد انتهائه منها وَّصَحَ الريشةَ في المحبرة، وبيطء أغلق الكتاب الضخم، ومررَ يده فوق الشمعة ببطء فانطفأت.

اشتدّت إضاءةُ القاعةِ من خمسين ثريات أضاءت تلقائياً بمجرد انطفاء الشمعة.

يعقّد ”الأنور“ قبضتيه على الطاولة وينظرُ إلى ”واعظ“ بعينه الخاليتين من الانفعالات، فيرفعُ ”واعظ“ عينيه ويعدّل من وقفته في انتباهٍ وقد اُذِنَ له بالحديث، فيقول بلهجة يشوبها القلق:

- ”قائظ“!

لم يبدُ على ”الأنور“ أيّ انفعال ولم يقل شيئاً، فيستطرّدُ
”واعظ“:

- ”قائظ“ طليق. انتهتُ مدّة تصفيده منذُ برهة.

يسندُ "الأنور" ظهره للخلف، ويضعُ ذراعَيْه على مسندي كرسيه ويسندُ ذقنه على قبضتيه المتشابكتين، ويعلو الاهتمام وجهه ويومئ لـ "واعظ" أن يستمر، فيقول:

- وحازَ مخطوطةَ الدهر.. سَلَبَهَا مِنْ مَكَمَّنِ الأقدار!

بصوتٍ رخيِمٍ عميقٍ به حكمةٌ دُهور وأزمنة، سألَ "الأنور" بثبات، وإنْ بدأتِ رائحةُ القلق تظهُرُ في المكان:

- أَمْ تحرقُه وتذرُه رَمادًا؟

- نعم، لم تحرقُه.

تتسَعُ عينا "الأنور" للحظةٍ اندهاشًا، قَبْلَ أَنْ يفسّر "واعظ" سَبَبَ عدم احتراق "قائظ" بالمخطوطةِ المسروقة، التي يبدو أنها قادرةٌ على حرق غير المخولين بحيازتها حالَ لمسها:

- لقد جندَ فيلقًا مارقًا.. به ساحرةٌ شديدةُ البأس.. كَفَتَه شرُّ الاحتراقِ لَعَنًا، فامتلكَ الوثيقة.

يَهزُ "الأنور" رأسه ببطءٍ مرّاتٍ ومرّاتٍ، ويبدو أنه يفكر في عواقب تلك الأخبار السوداء، فينقلُ أفكاره إلى كلماتٍ صارمةٍ وجهها لـ "واعظ":

- ليسَ فقط امتلاك تلك المخطوطة هو ما يجود بالاستطاعة.. بل تلزم أيضًا قراءات موزونة لكلمات موضوعة، لا يعرفها هو.

فيردُفُ "واعظ" بتردّد، وهو يدركُ مدى شوْم ما سيخبر به

”الأنور“ حالاً:

- الساحرة رفّفته عرفتُ أسرارَ الكلمات!

هنا، ولأول مرة يمتنعُ وجهُ ”الأنور“ مدرّكاً أنّ امتلاكَ تلك المخطوطة مع معرفة مفتاحِ تشغيلها -إن جاز التعبير- يكفُلُ لـ”قائظ“ المارق الذي لا يكفّ عن العبث، يكفُلُ له ما يفوق أقصى رغباته بكثير، التحكّم -أو للدقة ”العبث“- في الأقدار. لا، ليست الأقدار التي ستقع، بل تلك التي حدثت بالفعل.. ما من شأنه أن يعطيه أفضليّة وتفوّقٌ أبديّ في العالم الموازي ذي الأقدار الجديدة الذي سيهون جميعاً إليه.. هم والبشرية جمعاء.. حال نجاحه في تغيير الماضي.

ينهضُ ”الأنور“ ممسكاً بالكتاب، فينزاح كرسية من ذاته للخلف متزّجاً، ويسيرُ بخطواتٍ راسخةٍ وسَطَ دخان البخور المتراقص إلى مكتبة تحتل جدارين كاملين بارتفاع القاعة بأكملها، وما أن يصلها حتى يضع الكتابَ في مكانه في الرف وسط آلاف آلاف الكتب، ثم يمدُّ ذراعه لأعلى ليمسك بقائم أحد الأرفف ويجذبه لأسفل، لينزلق الجدار بأكمله في أرضية القاعة، لتظهر من السقف مجموعةٌ أخرى من الأرفف تملأ الجدار.

يظلُّ ”الأنور“ يبحثُ بعينه في الكتبِ الموضوعة، إلى أن يجدَ مراده في رف علوي.. فيجذبُ الجدارَ لأسفل قليلاً ببطء، ويأخذ كتابَ يماثل السابق ضخامةً وقِدَمًا، ويعودُ ببطء إلى كرسية الذي اقتربَ من الطاولة مع اقتراب ”الأنور“، فيجلسُ

وعلامات القلق والتفكير العميق بادية على وجهه، ويمرر كفه فوق الشمعة فيشتعل لهبها من جديد، وتخفت إضاءة القاعة بانطفاء الثريات تلقائياً من جديد.

أخذَ "الأنور" يقرأ كثيراً في الكتاب، يقرأ ويقرأ ويقلب الصفحات ذهاباً وعودة، و"واعظ" واقف مكانه لا يتحرك، وألسنة دخان البخور تتراقص من حوله.

ينعقد بشدة حاجبا "الأنور" الكئين الأشيبين، ويأخذ ريشته من المحبرة، ويكتب قليلاً من الكلمات في الكتاب، ثم ينظر إلى "واعظ" ويقول بنبرة أمرة وقلقة:

- اتبعه.. وامنعه.. افعل كل ما يلزم.

تتنصب قامة "واعظ" اهتماماً، وتكتسي ملامحه بأهمية المهمة، ويستكمل الأنور:

- لا يزال "قائظ" لا يستطيع تخطي الحاجز ولا يستطيع أن يغيّر شيئاً بنفسه، سيغوي أرضياً.. يخدعه.. يضلله.. لا مفر، ليأتي بفعلته. إن لم تُدرك هذا الـ"قائظ"، وعُ الأرضي المختار.. لا تدعه يعبث ظاناً أنه يُحسن صنْعاً.

في تلك اللحظة تتسلل للقاعة أصوات همهمات رتيبة جماعية، همهمات إيقاعية صادرة عن حناجر قوية وأفواه مغلقة.

يَقِفُ "الأنور" بهمة فيتحرّح الكرسي للخلف، ويقول موجّهاً الكلمة الأخيرة لـ"واعظ":

- لا تَغْفَل لحظة، ولا تدع "قائظ" يفعلها.

يومي "واعظ" برأسه إيجابًا وهو يتراجح ثلاثَ خطواتٍ بظهره قبل أن يستدير متَّجِّهًا لمهمَّته المصيريَّة، ويستدير "الأنور" متَّجِّهًا بخطواتٍ واسعةٍ لبابِ عملاق، ما أن اقترب منه حتى انفتح بغتةً على منصَّةٍ كبيرةٍ مرتفعةٍ تطلُّ على ساحةٍ رُخاميَّةٍ عملاقةٍ مَداها مَدَى البصر، يقفُ بها المئات، بل الآلاف، متراصِّين في خشوعٍ مُغْمِضِي أعينهم ويهزُّون رؤوسهم ببطءٍ ذاتِ اليمينِ وذاتِ اليسار، مُصَدِّرين تلك المهممات الجماعيَّة.

يقفُ "الأنور" ينظرُ إليهم مليًّا، فترتفعُ همهماتهم وتُصْبِحُ أقوَى بِدُخُولِ "الأنور" للمنصَّة. فيرفحُ "الأنور" ذراعيه عن آخرهما ضامًّا قبضتيه ليسقط كَمِّي جِلْبَابِهِ الأبيض إلى ساعديه، فأخذت الجموعُ في التشكُّل في دوائرٍ عملاقةٍ.. دوائرٍ داخلِ دوائرٍ داخلِ دوائر. وأخذت كلُّ حلقةٍ في الدورانِ بِسُرْعَةٍ بطيئةٍ في اتِّجَاهِ عَكْسِ دورانِ الحلقةِ التي تَسْبِقُها والتي تليها، وقد صَمَّ جَمِيعُهم أذرعهم متقاطعةً أمامِ صدورهم وما زالوا مُغْمِضِي الأعين، وفتَّحوا أفواههم ليصدر الصَّوت من الحناجر ويعلو رويدًا رويدًا بكلمةٍ واحدةٍ:

- هُوَ!

يسبُحُ "الأنور" في الهواءِ هابطًا من شُرْفَتِهِ ليخترق الحلقاتِ الدَّائرةَ ويمرُّ من خلالها، فيلمسُ أثناءَ مُروره عمامةً هذا أو ذاك بكفِّه، فتفتجَّر لحظيًّا تلك الحلقة بلفظةٍ قادمةٍ من أعماقِ

الحناجرِ ويهتفونَ جميعًا في نَفْسٍ واحدٍ:

- الله!

فتزيدُ سرعةَ دورانهم ويعودون لتزديد "هُوَ" بصوت أعلى من ذي قبل، ثم ينتقل "الأنور" للحلقة التي تليها ويعيد الكرّة، فيقولون جميعًا بأعلى صوت:

- حَيّ!

ثمَّ يعودون لتزديد وتكرارِ اللفظ "هُوَ". إلى أن وصل "الأنور" إلى مركزِ تلك الدوائر، فيَنظر لأعلى وهو يرتفع في الهواء رافعًا كفيّه المفتوحَتين عن آخرهما لأعلى مدى، ليجارَ بصوتٍ كأنه قادم من أعماقِ أعماقِ الكون في صيحةٍ طويلة، أسكتت وأسكنت الجميع تمامًا.. هاتفًا:

- هُوَ الله!

وما أن انتهى من تسبيحته الطويلة، حتّى انفكَّ تجمّد الجُموع.. وأخذوا في الدورانِ وهُم مغمضو الأعين.. كتفًا في كتف.. دوران أخذ في التسارع.. صائحين من أعماقهم بالتبادل بين الحلقاتِ الدائرة في اتجاهاتٍ متعاكسة بين "هُوَ.. هُوَ.. هُوَ" و"الله.. الله.. الله"، بينما الدوائر الخمسة المركزية ثابتة مكانها ويلوحون برؤوسهم يمينًا ويسارًا هاتفين "حَيّ.. حَيّ.. حَيّ".

و"الأنور" في مكانه خاشعًا ناظرًا إلى السماء، منطلقًا في

ابتهالاته لربه.

في تلك الأثناء، كان التحام "قائظ" بطيف "حازم" قد تمّ بالفعل، وأخذ روحه إلى صفحة من صفحات الماضي، ليراقبه عن كثب، وهو يحضّر له إرادة الفعل، التي ستدفع "حازم" إلى القيام بتغيير في الحدث، في الماضي.. لينقلب إثر ذلك، الحاضر، والمستقبل، والوجود.. رأسًا على عقب.

ما إن خرجنا بالسيارة من نفق الشهيد أحمد حمدي، وبعد أقل من كيلومتر واحد في أرض سيناء، التي تطؤها أقدامنا (أو إطاراتنا للدقة) لأول مرة في حياة أيِّ منَّا، كان لزامًا علينا التوقف للتفكير في وجهة الرحلة التي لم نقرر أي شيء بخصوصها، أكثر من كونها إلى سيناء.. و فقط.

كنا -ثلاثتنا- أصدقاءً منذ زمن بعيد جدًا.. أصدقاء طفولة، ونتحينّ الإجازات المعتادة السنوية للسفر إلى الساحل الشمالي. وعندما حان ميعاد الإجازة تلك المرة.. خطر في بالي تغيير الروتين والسفر إلى أيِّ من منتجعات سيناء، وكانت الفكرة الوليدة قبل العيد الأضحى بيومين فقط.

وعندما عرضت الفكرة على صديقي، كان ما توقعت تمامًا. ترحيب كبير من "أكرم" الذي ملّ السفريات المعتادة وروتينها المتكرر، مثلي تمامًا، ورفض قاطع من "عمر" الذي لم يكن يقلقه انعدام التخطيط الكامل للرحلة، قدر ما ضايقته فكرة المجازفة بوحدة من الإجازات القليلة، في مكان نستكشفه ولا نعلم -يقينًا- قدر المتعة الذي يوفره.

والمتعة كلمة مطاطة بشدة، تتمدد وتنكمش في جميع الاتجاهات، بعض الناس يمتعهم بشدة كوب شاي في البلكونة، بينما ابنة السلطان أصابها الضجر القاتل في إحدى قصص الأطفال. لذلك دعني أوضح تفاصيل ذلك التعريف في قاموسنا نحن الثلاثة:

المتعة: بحر.. بنات ببيني.. موتوسيكل مائي.. حشيش صباحًا.. حشيش مساءً.. وحشيش فيما بينهما.

لسنا مدمنين إن حسبت هذا، فقط في السفريات ندخّنه، بل نعتبره ضرورة أساسية أو بعدًا رابعًا لتكتمل متعة أي رحلة.

كنا نذهب إلى الساحل دومًا و(إحنا محضّرين الشنطة) على حد وصف "عمر".. يعني بهذا المصطلح المعبر حقًا، أن معنا كمية الحشيش الكاملة التي تكفينا طوال أيام السفر. لكن حدث ذات مرة أن تمّ استيقافنا في كمين شرطة على الطريق الصحراوي. لو كان قد رأنا العالم أثناء دخولنا على الكمين، لصفقت البشرية جمعاء لمؤلف مقولة "يكاد المرعب أن يقول خذوني" حتى يصيبه الصمم. حدث في هذا الكمين ما حدث، وما أودّ نسيانه، ومن بعدها وثلاثتنا لا (نحضر الشنطة).. بل نتبع ما نريده من الحشيش من عرب جالسين على طريق الساحل نفسه، متخفين في هيئة بائعي تين برشومي.

أنفجر ضحكًا كلما تذكرت موقفًا حدث ذات مرة.. عندما كنت أتداول مع أحد هؤلاء التجار، فتوقفت سيارة تستقلها

أسرة مصرية كاملة، نزل ربّها ليبتاع كمية التين القليلة التي ظن أنها معروضة فعلاً للبيع، واندَهَشَ بشدة من رفض التاجر لبيعه الكيلو الوحيد الموضوع فوق القفص الخشبي.. فلما زاد إصرار الرجل عاشق التين على شرائه.. ما كان من التاجر المتأفف إلا أن تجاهله تمامًا، وأخرج قطعة محترمة من الحشيش، وأخذ يفركها ويشمها ويعضها قبل أن يناولها لي أمام الرجل، هكذا جهازًا على الملأ. ذعر أصيل نقيّ تولّد أنهارًا في كيان هذا الرجل الأسريّ وهو يهرول لسيارته ويتعثّر وينهض ويسُب، قبل أن ينطلق بها هاربًا من الشياطين.. بينما أطفاله يراقبوننا من الزجاج الخلفي وهم يصرخون من الرعب.

إذن نصف تعريفنا للمتعة ”حشيش.. حشيش.. ثم حشيش“ على المحك في هذه الرحلة. لا نعرف مصادر في سيناء، ولن نأخذ ما يكفيننا من القاهرة. لكن لا ضرر.. كنت قد سميتها ”مغامرة“ في الأساس. لنر كيف ستسير الأمور.

كثيراً أخبرني ”أكرم“ و”عمر“ أن عملي -ك-advisor في شركة لسمررة وتداول الأسهم في البورصة- كان له انعكاس مباشر على شخصيتي وحياتي في تفاصيل عدة.. حتى اسمي ”حازم“ اعتبره تجسيداً لصفة استخدمها في عملي. لم أعارضهما، ولم أخبرهما برأيي المماثل في انعكاس مجال عملهما الوظيفي عليهما.

فالسنوات الستة التي قضاها ”أكرم“ منذ تخرّجه في هندسة البترول، جميعها كانت في الحقول البترولية.. سواء في الصحراء

أو في قلب البحر.. لم يرَ مقر الشركة الرئيسي الإداري إلا مرتين في المقابلات الشخصية، ومرة أخرى يوم توقيع العقد. كان لهذا الانعزال العظيم الأثر عليه، فأصبح شحيح الكلام إلى حد كبير.. رغبته صارت صفرًا في اكتساب معارف جدد.. مزاحه صار معقدًا نسبيًا، ويحتاج إلى تفكير سريع لتدرك مقصده وحبكته قبل أن تسايه فيه. كل هذه الخصال تناقض طبيعة "أكرم" الأصلية.. لكنك دائمًا ترى في أصدقاء طفولتك طبيعتك وطبيعتهم الأصلية مهما تغيروا. تعرف تلك العلاقات التي تتحول فيها الصداقة إلى نوع من الانصهار أو التواؤم الكامل مهما اختلفت تفاصيل مزاجية أو اهتمامات فرعية. فقط بعد وقوعنا في الأسر (أي الوظيفة والحياة العملية) تغير كل منا على حدة، ولو رأنا صاحب مقولة "الطيور على أشكالها تقع" لانتحر حرقًا دون تردد.. لكنه لو كان رأنا قبل ذلك الأسر، لطالب بحقه في الميدالية الذهبية في أولمبياد الأقوال المأثورة.

أما "عمر" فيعمل في مجال التسويق في شركة مالتى ناشيونال منذ تخرجه منذ سبع سنوات، ولديه كل ما يلزم لتلك الوظيفة في تلك الشركة.. لباقة، خفة ظل، مظهر، لغة، موبايل بلاك بيري. هو من الشخصيات ذات الكاريزما. وهو في الحقيقة يتقن ببراعة أن يخفي في أعماق أعماقه مشاعره الحقيقية تجاه من تفوق سخافتهم المدى. "عمر" إجمالاً شخص لطيف المعشر. ولكن ينتفي عنه كل ما سبق ذكره -بالنسبة إليّ- عندما يصرّ على الحديث في ذلك الموضوع الذي احتل جزءًا من حياته

قريبًا. فقد أيقظني ذات يوم في الثانية بعد منتصف الليل بكاملة يتحدث فيها كأنه في قلب بركان، صارخًا في -حرفيًا- أن أقفز من السرير وأقبله للضرورة القصوى. حاولت أن أفهم ما هنالك مسبقًا، لكن هيهات. قمت والفضول والغيظ يتصارعان على أحقية أيهما في قتلي.

قابلته في المكان المحدد.. لأجد ملامح الجدية والخطورة يكتسي بهما وجهه. ومن دون مقدمات سألني وهو ينظر في عيني:

- نفسك تبقى مليونير؟

- طبعًا.. دماغك فيها إليه؟

- من غير أسئلة.. هات ست آلاف جنيه!

وبعد ساعة كاملة من اعتصاري له لينطق بما عنده، ونفاد صبر -مداه تلك الساعة- من جانبه، مع إصراره أن أدبر له المبلغ دون أسئلة، وأن مصلحتي هي ما يشغله وكلام من هذا القبيل، انفجرت غاضبًا من هذا البكّه وأمرته أن ينطق أو ننصرف. فقال نافد الصبر، متأفّفًا من غبائي، إن الموضوع يتعلق بشيء يسمى التسويق الشبكي.. وأخذ يشرح لي هراء عن شجرة وعن أشخاص يبيعون هراء لأشخاص، واجبههم أن يبيعوا نفس الهراء لأشخاص آخرين.. فيأخذ الأشخاص الرواد في شراء الهراء عمولة متغيرة طبقًا ل...

لماذا لا يوجد مثيل عربي للكلمة الإنجليزية الرائعة...bla.
bla.. bla.

عمومًا.. بلا بلا بلا.

بعد رد فعل قاسٍ (حلقي ولفظي) من جانبي، أدار رؤوس
الجالسين في المقهى، أسند "عمر" ظهره وبدت عليه علامات
أعرفها جيدًا، تعني أنه سيدخل في الخطة "ب". فتغيرت لهجته
وقال لي بحكمة لم تَلِقْ به:

- طيب.. سيك من السيستم.. معايا منتج سحري هيغير
حياتك.

كان النوم قد غادر خلاياي بلا رجعة في تلك الليلة التعيسة،
فخبطت رأسي في المنضدة بدلاً من أن أشجَّ رأسه، وطلبت منه
الاستمرار. ففتح زرين من القميص وجذبه كاشفًا عن صدره
كأنه يريني كنزًا نادرًا! لأجد عنقه يلتف بدوارة سوداء معلق
بها قرص زجاجي يشبه "اللبنانة" التي تضعها أمي في اللبن
السائب أثناء غليه كي.. كي... لا أدري لماذا.. لكنها تشبهها جدًا
وإن كانت أصغر قليلًا في القطر.

لو كنت فتحت فمي حينها لأفلت تحكمي في أعصابي كاملاً..
فتحاملت وهزرت رأسي متسائلًا، فقال لي إن هذه اللبنانة قادمة
من أحجار جبال الألب، وأنها تحوي طاقة كونية تبعد الصداع
عك مدى الحياة وتجعلك ناجحًا في حياتك حازمًا في أمورك ذكيًا
في قراراتك، أما إذا وضعت كوب ماء فوقها لعدد من الساعات

ثم شربته بعدها.. فجهازك الهضمي واستقرارك النفسي ونفاذ بصيرتك سيكونون جميعًا في حال لا توصف من الروعة.

بحثت حولي عن مدفع هاون لأنسفه به فلم أجد. تحاملت.. ففركت سبابتي وإبهامي علامة النقود متسائلًا عن سعرها من باب الفضول، فقال ”عمر“ إن ثمنها خمسة آلاف وخمسمائة جنيه! فأخذت حاجياتي وغادرت المقهى دونما أي كلمة.

وتكررت محاولات ”عمر“ معي أنا و”أكرم“ كثيرًا جدًا، ولم تُجد معه أغلظ الأيمان التي أطلقها أنني لن أدخل هذا الـ... بيزنس -كما يسميه- ولا كمية السخرية التي نلقيها على رأسه كلما تحدث عن هذا الموضوع.

فيما عدا لزوجته في تلك الأوقات العصيبة المجهدة التي يكررها دوريًا معنا، فهو شخص لطيف حقًا.. فعلاً.. عودة إلى سيناء.

بعد خروجنا من نفق الشهيد أحمد حمدي بقليل، لم نكن قد قررنا بعد إلى أين سنتجه بالضبط، وفعلاً هتف ”عمر“:
- بس بقى هنا stop كده ونشوف التخلف بتاعكو ده هيمشينا أو نمشيه إزاي.

ضحكنا بشدة وتوقف ”أكرم“ على جانب الطريق، فاستدرنا لنواجه بعضنا بعضًا، وقال ”أكرم“:

- "عمر" .. بطل نواح يا حبيبي.. يعني إنت اتفاجئت هنا
مثلاً باللي إحنا مرتبينه؟

فرد "عمر" باستهزاء ضاحك:

- مرتبينه؟ ضحكنتي يا اسمك إيه إنت.. اسمها اللي إحنا
"مش" مرتبينه.

داريت قلقي المماثل الآخذ في التصاعد، وقلت:

- إنت خايف من إيه؟! مش لازم يعني الروتين والممل بتاع
كل مرة ده.. مغامرة من نفسنا مش هتخسر.

ضرب "عمر" كفًا بكف وقال:

- لا حول ولا قوة إلا بالله! مغامرة إيه يا عم كولومبوس! حد
في الدنيا يسافر وهو مش عارف رايح فين ولا هينام فين ولا
حاجز فين؟! إيه المغامرة في كده يعني؟!

فقال "أكرم" بعصبية:

- "عمر" .. إحنا مش هنعيد نفس الكلام اللي بقالنا يومين
بنهري فيه.. ألف و نرجع القاهرة لو عايز، ومتقلبهاش غم
وصداع!

فاستلقى "عمر" ممدداً جسمه على الكنبه وغمى عينيه
بذراعه وقال:

- آه ما هو من كتر الأجازات الي بتيجي في السنة فعلا
هنروح نستكشف سيناء! من غير ما تقفش يا ابن بطوطة
شوف إنت وكولومبوس هتستكشفونا فين، وابقوا صحوني لما
نوصل المكان الي إحنا مش عارفين إننا رايحينه.

ضحكنا من جديد، وأخرجت خريطة لسيناء وفردتها وقلت
مشيراً عليها بسبابتي لـ "أكرم":

- إحنا هنا دلوقتي.. هناخد يمينا الجاي إجباري.. لو كملنا
بعدها على طول هنروح شرم الشيخ.. ولو خدنا اليوتيرن ده
ودخلنا بعدها يمينا في الطريق ده هنوصل في آخره في طريق ما
بين دهب ونوبيع.. دماغك إيه؟

فكر "أكرم" قليلاً ثم قال:

- نروح شرم.. كل الناس بتقول فيها شعر.. خليها شرم أضمن.
هّب "عمر" من استلقائه صائحاً:

- أضمن مين يا أبو أضمن؟! وإنت فاكرا إن في عيد الأضحى
هنلاقي فيها خرم إبرة نتخمد فيه؟!

- طب ما نفس الكلام على دهب ونوبيع!

- بص يا ابن بطوطة يا صاحبي.. فيه اختراع في عصرنا ده
اسمه إنترنت.. دخلت إمبراح على حاجة فيه اسمها تريب
أدفايزور.. قرئت فيه إن دهب فيها شاطئ مش بتاع حد..

الناس بتنام فيه بالليل.. في الطلّ كده.

انقضّ "أكرم" ممسكًا برقبة "عمر" مازحًا وهتف:

- يعني إنت عاملنا فيها باشا وسفرياتك مترتبة وعاييز في
الآخر ترمينا في شطّ المشردين.

فأمسك "عمر" بقبضة "أكرم" ليحرر رقبتة قائلاً:

- ثانية واحدة بس بعد إذذك!

وما أن تركه "أكرم" حتى أخذ "عمر" يخبط رأسه -نفسه-
مرارًا في زجاج نافذة السيارة، قائلاً مدعيًا البكاء:

- يا رب الناس دي اتولدت ليه! ولو اتولدت، عرفتهم أنا ليه!
ولو عرفتهم مقطعتش معاهم ليه!

فهت ما يقصد طبعًا، فقلت لـ"أكرم":

- "عمر" قصده "بلان بي" .. لو ملقيناش فنادق ولا كامبات
فيها مكان فاضي ياخدنا، نترمي في الشطّ ده وخلص.. عنده
حق بصراحة.

ففاجأنا "أكرم" بإصراره وغبائه قائلاً ببلادة:

- بس شرم أحلى!

أخذ "عمر" يقلد صياح السيدات مستنكرًا رأي "أكرم"، فقام
"أكرم" بالانقضاء عليه ليوسعه لكلمات وهمية، شاركته فيها

ونحن جميعًا نضحك، إلى أن شرد "عمر" ببصره عبر زجاج السيارة، مشيرًا بإصبعه قائلاً في قلق:

- ألف ألف مبروك.. قابلوا المغامرة دي!

فالتفتنا لنجد سيارة جيب تابعة للجيش قادمة مسرعة إلينا عبر الصحراء ولا يبدو أنها تنوي المزاح، ويعتليها جنود مدججين بالسلاح. ما أن وصلت السيارة للأسفلت حتى توقفت أمام سيارتنا قاطعة طريقنا، ونزل منها عقيد بزيّهِ الرسمي يصحبه جنديان.

كنا ما نزال متابعين للمشهد من داخل السيارة في صمت وقلق، حتى أن "أكرم" لم يفتح نافذته التي وقف عندها العقيد وانحنى ليتفحصنا.

فتح العقيد باب السيارة بنفسه وأشار لنا بالنزول، فتراصينا ثلاثتنا خارجها دون كلمة واحدة، وسألنا بعد فحص بصري قتلنا قلقًا:

- رايحين فين؟

فأجبنا في نفس واحد.

”أكرم“: - شرم.

أنا: - شرم الشيخ.

”عمر“: - ذهب يا باشا.

اتسعت عينا العقيد ساخراً وقال:

- إنتو هتسيبوا بعض في نص الطريق ولا إيه؟

وبعد حديث قصير وأطلعاه على هوياتنا وتفتيش سريع للسيارة، وبعد أن اطمأن أطلقنا العقيد وقال:

- رحلة سعيدة يا شباب.. بس متقفوش في الطريق أبداً جوة سيناء.. فكروا من دلوقتي وخلصوا.. لو موقفتوش في منطقة تبع الجيش زي دي، هتقفوا في أماكن أصعب مليون مرة!

تبادلنا الشكر والتحيات والدعوات، وما أن انصرفت القوة، وأدار ”أكرم“ السيارة، حتى قال ”عمر“:

- استفتاحة فل بصراحة.. مبسوطين؟

- أنا دم اللي خلفوني نشف!

فقلت لـ ”أكرم“:

- المهم.. طوالي ولا يوتيرن؟

- يوتيرن.. ذهب.

تمام.. التفّت إلى ”عمر“ وسألته:

- ”عمر“ بيه؟

- الساحل.

فاعتدلت في جلستي وأشرت لـ ”أكرم“ للأمام قائلاً:

- اطلع يا عم اطلع.. ده ناوي يجييلنا شلل!

وانطلقت السيارة تقلّنا إلى حيث ما لم نكن نعلم.

obeikandi.com

أخذنا اليوتيرن.. ثم انحرفنا يميناً ممتطين الطريق الذي يشق
سيناء بالعرض شقاً إلى نصفين. قرابة الساعة ونصف قضيناها
في اللا شيء.. لا شيء.

طريق ذو حارتين للاتجاهين دون فاصل بينهما، أسفلت ليس
في أفضل حال وإن كان ليس رديئاً، عيون ققط تحدد جانبيه..
و فقط.

لا أعمدة إنارة.. لا رصيف جانبي.. لا محلات.. لا أقفاص تين
برشومي.. لا بشر.. لا سيارات.

ولا شبكة موبايل.. وتلك هي الطامة التي اعتبرتها كبرى.

تخيلت -مجرد تخيل- أن إطارين انفجرا معاً تحت وطأة
الحرارة الشديدة والسرعة المرتفعة، مجرد التخيل أصابني
بالذعر، لكنني كتمت تلك المخاوف داخلي وقضيت الوقت في
تأمل الرمال الممتدة والسماء الزرقاء واللا شيء.

كنا صامتين تماماً، إلا من سي دي به كنوز الأغاني للبيتلز
ودوورز وأمهات الأغاني في تلك الفترة الجميلة. توجهت ببصري

يمينا لأراقب الصحراء، فاصطدمت عيناى بقرص الشمس،
ليصينى ذلك العمى الجزئى المؤقت، ما جعلنى أتوهم رؤية
سراب أو تخيل لرجل يلبس جلبابًا ويمسك بعصا ضخمة ويسير
بهمةً فى الصحراء باتجاهنا، قبل أن يتبدد فجأة.

تخيلات فى صراعى مع الملل.

نطق "عمر" بضجر طالبًا أغنية بعينها فى السى دي، فأجابه
"أكرم" أنها ليست فى هذا السى دي بالذات. ورغم أنني على
يقين أنها الأغنية التالية، لكننى صمتٌ ولم أعلق.. ولم يعلق
أيهما.. وحين انتهت الأغنية، بالفعل كانت People are strange
هى التالية. مرّ هذا الحدث دون أى تعليق أو نقاش، ما أدراى أن
الملل فرض سيطرته علينا بالفعل، وهذا وحده كفى أن يقتل
أى مشروع للاستمتاع قبل أن يبدأ. دائمًا أعب أنا بين "عمر"
و"أكرم" دور رمانة الميزان.. فقررت أنني لن أنجرف أعمق من
هذا فى بئر الملل الذى وقعنا فيه بالفعل. فبادرت بالكلام فى أى
كلام، وسألت "أكرم" سؤالًا عميقًا للغاية:

- مالك يا "أكرم"؟

انفجر "أكرم" فى رده دون داعٍ وأخذ يرمى اللعنات على هذا
السؤال ومن اخترعه ومن يسأله، ظنًا منه -حسب تعبير
"أكرم"- أنه بذلك يكون ملاكًا.. وأخذ يقسم مرارًا وتكرارًا
أن شكله قد صار هكذا، يبدو كمن به شيء، وليس هنالك
بالضرورة- شيء. وأنه أصبح مجرد استماعه لهذا السؤال

الكريه يغيّر مزاجه، وكفيل بأن يجعل هناك شيئاً بداخله فعلاً، ويصبح السؤال في محله لحظياً.

ينفجر "أكرم" كثيراً هكذا، ولا أدخل معه عادة في مجادلات ولا مناقشات حادة، ولا أغضب منه كذلك.. لا أنا ولا "عمر".. لكنني أعتقد فعلاً أن لا أحد غيرنا يمكن أن يطيق ساعة مع هذا الشخص الحاد المزاج.

لم أرد، فاعتذر بعدها بدقائق "أكرم"، وقال إنه فقط يشعر بشؤم ما في طريقه إلينا أو في طريقنا إليه، ووضّح أنه لا يعني بذلك رحلتنا عديمة التجهيزات.. بل يتحدث عن شيء ما مُقْبِض لا يدرّ كنهه. أخفيت قلقاً مماثلاً، وطمأنته أن كل شيء سيكون على ما يرام، وعدنا جميعاً من جديد إلى قواعد الصمت سالمين.

عدت من جديد لمراقبة الطريق الخالي من أي شيء. الطريق يبدو كأن من صممه أمسك بمسطرة ووضعها في منتصف خريطة سيناء ثم جرّ خطأً طويلاً. لا يوجد أي انحناء أو انكسار في الطريق.. لا يرتفع ولا ينخفض.. لا يوجد عن يمينه أو يساره أي شيء إلا الرمال.. منتهى الملل حقاً.

وأخيراً ظهرت على مسافة لافتة على جانب الطريق، لست من عشاق اللافتات بالطبع، لكن ظهورها في المشهد جعلها تبدو ونيساً أليفاً سنمر بجانبه سريعاً. تعلقت بها أنظارنا جميعاً؛ كونها العنصر الوحيد حولنا. اقتربنا منها وظهرت كتابتها. كانت

تحتوي كلمة واحدة فقط، قرأها "أكرم" كمحاولة لكسر ذلك الصمت، بصوت عالٍ وبدون أي انفعال، بفتح النون وتسكين الخاء:

- نَخُل.

وما أن استدرت ببصري للأمام من جديد، حتى فوجئت بالرجل ذي الجلباب والعصا الذي رأيته منذ قليل يسير في عرض الصحراء، وجدته واقفًا في منتصف الطريق أمام السيارة بالضبط على بعد أمتار قليلة، بينما السيارة بكامل سرعتها تقترب منه.

سنصدمه لا محالة!

جزعًا فردت ذراعيَّ وهتفت صارخًا في "أكرم"، بينما الرجل واقف في ثبات ناظرًا في عينيَّ فاحصًا، والسيارة تطوي الأسفلت متجهة صوبه. وقبل أن نصدمه بمتر واحد، بدأ صوت الأغنية الصادر من الكاسيت، وصرختي العالية في الانخفاض سريعًا، حتى صارا كصوتين خافتين قادمين من مسافة كيلومترات، واخترق الشيخ السيارة دون تكسير.. أو مرت هي من خلاله.. إلى أن صار أمامي تمامًا داخل السيارة.. قبل أن يتجمد كل شيء، إلا من الشيخ ومنِّي.. فوضع يده على كتفي ممسكًا بي بحزم، وقال مصححًا بصوت عميق قوي، بكسر النون والحاء:

- نِخِل!

عِنْدَمَا تَرَكَ "واعظ" "الأنور" وأَنْطَلَقَ فِي مَهْمَّتِهِ، كَانَ "قَائِظٌ"
قَدْ سَبَقَهُ بِأَشْوَاطٍ بِالْفِعْلِ. لَا نَعْلَمُ يَقِينًا أَدْوَاتِ "قَائِظٌ" وَلَا
مَعْدَاتِهِ، وَلَا كُنْهَ التَّرَاتِيلِ الَّتِي يَتْلُوهَا وَلَا الْمِرَادَ مِنْهَا تَحْدِيدًا. لَا
نَعْلَمُ الْجَنُودَ الْمَسْخَرِينَ لِأَمْرِهِ وَعَدَدَهُمْ وَمَقْدَرَتَهُمْ، لَا نَعْلَمُ وَلَا
يَهُمُّ.. فَقَطْ نَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ أَنَّ "واعظ" يَنْتَفِي أَثَرَهُ الْآنَ.. وَأَنَّ
"الأنور" يراقبهما.

لَا نَعْلَمُ كُنْهَ تِلْكَ الْوَثِيقَةِ أَوْ الْمَخْطُوطَةِ الَّتِي اسْتَحُوذَ عَلَيْهَا
بِمُسَاعَدَةِ تِلْكَ السَّاحِرَةِ الَّتِي لَا نَعْرِفُهَا أَيُّضًا، لَكِنَّا نَعْلَمُ أَنَّ مَنْ
يَمْلِكُ تِلْكَ الْمَخْطُوطَةَ الْخَطِيرَةَ تَسْقُطُ أَمَامَهُ أَبْعَادُ الزَّمَنِ. لَا،
لَيْسَ أَمَامَهُ، فَهُوَ وَبَنُو جِنْسِهِ لَا قِيُودَ زَمْنِيَّةَ تَقَعُ عَلَيْهِمْ.. بَلِ
تَسْقُطُ أَمَامَ مَنْ يَلْبَسُهُ مِنَ الْبَشَرِ. الْبَشَرِيُّ الَّذِي يَلْتَحِمُ مَعَهُ
حَائِزُ تِلْكَ الْمَخْطُوطَةِ يَسْقُطُ عَشْوَائِيًّا فِي غِيَابِ الْأَزْمَنَةِ دُونَ
وَعِيٍّ أَوْ إِدْرَاكِ كَامِلٍ.. يَقَعُ عَشْوَائِيًّا فِي أَزْمَنَةٍ مُرْتَبِطَةٍ بِمَكَانِهِ أَوْ
ذِكْرِيَاتِهِ أَوْ مَعْرِفَتِهِ.. وَلَيْسَ هَذَا هُوَ الْخَطِيرُ فِي الْأَمْرِ، بَلِ الْخَطَرُ
كَلَّهُ يَكْمُنُ فِي إِعْطَاءِ ذَلِكَ الْبَشَرِيِّ الْمُنْتَقِلِ عِبْرَ الزَّمَنِ، الْقُدْرَةَ..
قُدْرَةَ اتِّخَاذِ فِعْلٍ مَادِي يَغْيِرُ فِي وَقَائِعِ أُمُورٍ مَوْقَعَهُ الزَّمْنِيَّ..
قُدْرَةَ اسْتِطَاعِ "قَائِظٌ" وَبَنُو جِنْسِهِ إِيْهَابَهَا -بِبَعْضِ التَّحْضِيرَاتِ

التي لا نعلمها أيضًا- يستطيعون إيهاؤها للبشري المختار. محاولةً وحيدةً مماثلة قام بها "قائظ" في الماضي، لكنها لم تسفر عن شيء، كَوْنِ البشري المختار آنذاك حين امتلك القدرة لم يفهم ولم يفعل أي شيء، فقط أخذ يرتجف ويصرخ.. قبل أن تؤول الأمور إلى نصابها ويُصَفَّد "قائظ" في غياهب سجن ما.

عندما انطلق "واعظ" في مهمته، كان "قائظ" في مكانٍ مقدَّسٍ في الأرض، تصادف مرور ثلاثة شباب به، وقد التحمَ فعليًا بـ"حازم" بطلنا الذي لا يعرف أنه بطلنا، والذي يظن نفسه في حلم.. وما هو بحلم.

التقط "قائظ" زمامَ الأمور، وحلَّق بـ"حازم" في نِخل، عبر أزمنة تقح فعليًا في الماضي، وشرَّعَ في رسم بعض الطلاسم وتلاوة بعض التعاويذ لاستحضار المقدرة وإسباغها على "حازم".

وإلى أن تكتمل تحضيرات "قائظ"، يحدث التالي لـ"حازم".

يتجمد الوجود، ويصمت الصوت تمامًا عند "حازم"، إلا من "قائظ" الذي يضع يده على كتفه ويقول له بلهجة تقريرية:
- نِخِل.

لا يسمعا "حازم" بل يشعر بها في أعماق عقله، ولا يرى "قائظ" لأكثر من لحظة قبل أن يقع فعليًا تحت سلطانه، فينتزعه من جسده ويحلّق به صوب تلك المدينة، نِخِل، فيظن "حازم" أنه في حلم ويترك نفسه لمجريات الأمور، مع لمسة من النشوة تعتريه ولا يقاومها.

يشاهد "حازم" الموجودات أثناء تحليقه على ارتفاع بنائية صغيرة بزواوية ميل ما، كأنه على برنامج "جوجل إيرث". يطير، أو يسحب أحدهم الخريطة من تحته. تظهر ملامح المدينة أخيراً من تضاريس ومبانٍ بدائية. فيبدأ في التحليق في مدار واسع حولها.. يضغط أحدهم زر "دوران" ويمسك طرف الخريطة العلوي الأيمن ويسحبها للأسفل فتدور من تحته، ويصيبه الدوار. يهبط "حازم" لأسفل بسرعة تقلقه.. أحدهم يدير عجلة الماوس للأمام بسرعة. تزيد سرعة هبوطه، وتقترب

الأرض وتبدأ ملامح الموجودات في التجسد والظهور بتفاصيل أكثر. يزيد قلق "حازم" الذي أصبح في رحلة سقوط حر. مجنون ما يدير عجلة الماوس للأمام دورات متتالية كالمحموم.. يدفع "حازم" الهواء بذراعيه وساقيه كالمجنون، يحاول أن يصرخ فلا يجد صوتًا. عشرة أمتار فقط تفصله عن الأرض.. الهلاك يأتي مهرولاً.. ستة أمتار.. لاب..

طاخ.

لدهشته، لا يستيقظ "حازم" إن كان في حلم، ولا يغشى عليه إن كان في واقع.. يشعر كغزالة مرّ فوقها قطع أفيال. يريد التأوه، ولا يوجد أي صوت ينوي أن يطيعه اليوم. يقلب عينيه ليرى أنه في وسط ممرات جبلية مرتفعة وضيقة للغاية.. نسبة المكان تقبض قلبه، ذلك الارتفاع الشاهق الجبار والممر المتناهي الضيق الملقى به أرضًا، يعطيه شعور الدودة في شق الأرض.

"إن لم أستيقظ قريبًا، سألتقط أنفاسي وأبحث عن مخرج."

يسمع لهات شخص يقترب.. أم هو صدى صوت لهات شخص يقترب؟! يتردد الصوت من هنا ومن هنا مقتربًا.. ينتبه "حازم" ويكتم أنفاسه.. يقترب صوت اللهات.. يزحف "حازم" بجهد ليلتصق بشق في الجدار لا يواريه.. صوت اللهات يأتي من هذا الاتجاه.. يخفق قلب "حازم" بعنف، ويلتصق بالصخر.. يقترب كثيرًا صاحب الصوت، أمتار قليلة تفصله عن الظهور..

يستعد "حازم" للتحامل والنهوض لملاقاة ذلك اللاهث.. يتوقف صاحب اللهاث عن الاقتراب، ويقع أرضاً مُصدراً صوت ارتطام مكتوم.. ويبدأ في النههة.. يردّها الصدى.. تتحول النههة إلى نحيب شديد.. نحيب طويل حاد النبرات يختلط بصداه.. ينفجر صاحب اللهاث في بكاء هستيري مع كثير من اللطم بعنف على الخد، ويستمر صدى الصوت في تجسيم المناحة بصوت دولبي.

يكتم "حازم" أنفاسه، ويتراجع وظهره يكاد يخترق الصخر.. لا يريد أن يصدر صوتاً.. يرجع رويداً متراً بعد متر.. يستدير ببطء.. ليجد أمامه مباشرة شخصاً ممزق الثياب أشعث الشعر واللحية، وعيناه تفيض دموعاً، تحولت للون البني جراء الغبار على وجهه.. ما أن يراه ذلك الأغبر حتى يمسكه من كتفيه ويهزه مراراً وهو يتقافز في هستيريا ويصرخ بكلمات غير مفهومة.

ينسى "حازم" في لحظة أي تعب بداخله، فيصرخ صراخاً طويلاً مستمراً، أشد وأعلى وأصدق، ويدفع الأغبر ليخلص نفسه ويجري بكامل طاقته دون أن ينظر خلفه. يجري كثيراً، ويتعالى صوت الصراخ والنحيب من كل مكان.. ليس لاهثاً منتحباً واحداً.. ولا اثنين.. بل لاهثين باكين كثر.. ويضاعفهم عدداً وأثراً ذلك الصدى الدؤوب.. يجري "حازم" ويجري في الشقوق الجبلية.. ليجد بعد حين، مفرق طرق.. ثلاثة شقوق أقل إضاءة، عليه اختيار الدخول في أحدها. لم تقتله الحيرة

فجميعهم سواء، والنحيب والولولة لا يتوقفان من جميع الاتجاهات. اختار الدخول في الشق الأيسر، وانطلق بسرعة مضاعفة، لينكسر الممر يمينًا وينحرف معه "حازم"، فيتصادف ظهور ثلاثة من المولولين فيصطدم معهم بعنف ويقعون جميعًا أرضًا. يظهر من ورائهم عدد أكبر منهم يأتي باتجاههم، يبدو أن النحيب هو لغة هؤلاء المخابيل.. يتقلب "حازم" أرضًا في مكانه عازمًا على الهروب للوراء، فيرى جماعة أخرى من النواحين العُبر تسد عليه الطريق.

أجمل ما في الوقوع بالكامل في المآزق، أنه يريح من التفكير في أي مخرج.. يستسلم "حازم" صامتًا، يحاول أن يجارهم في النحيب والنواح، فلا يطعه صوته.

- "أين ذهب ذلك اللعين؟".

يراقبهم "حازم" يقتربون يحيطونه، فيرمي أحدهم أرضًا ويخبط آخر رأسه في الجدار مرارًا إلى أن تدمي، ويحدثه أحدهم، وهو ينتحب طبعًا:

- نستحق هذا.. وأكثر.

يفهم "حازم" كلمات اللغة الغريبة.. لكن صوته ما زال لا ينوي الظهور بعد.. لا تبقى إلا لغة الإشارة.. يهز "حازم" رأسه موافقًا أنهم يستحقون هذا وأكثر.. وكأما أعاد بموافقتهم تلك شحن بطاريات حناجرهم، فتعالى صراخهم بكامل طاقتهم من جديد.. إلى أن صرخ أحدهم بهستيريتهم الدائمة:

- يا موسى.. قل لربك قد ندمنا!!!!

موسى؟! شقوق جبلية؟! باكون يندمون؟!!

أنا.. في.. هضبة التيه؟! مع هؤلاء؟!!

هم رفضوا القتال مع موسى وهارون وقالوا لهما أن يذهبا
مع ربهما ليقاتلا.. أما هم فإنهم ها هنا سيكونوا قاعدين..
لكن ما ذنبي أنا؟!!

فليتيهوا في التيه أربعين عامًا.. فليندموا ثم يتوبوا ثم يُعفى
عنهم ثم يعصون من جديد فيُغضب عليهم فيبتلون.. ما شأني
في هذا؟!!

يصمت أحدهم لأول مرة.. ويقترب من "حازم" وهو يتألمه
مليًا.. يتفحصه ويمسك ملابسه يفرکہا.. ويقول لـ"حازم" بصرامة:

-لست منا!

يتجمد "حازم" مكانه، ويتراجع فيلتصق من جديد بالجدار،
فيصمت يهودي آخر ويقترب لتضييق المساحة الضيقة أكثر
أمام "حازم"، ويقول الآخر:

-لست منا!

يصمتون جميعًا واحد تلو الآخر، ويضيقون الخناق حول
"حازم" الذي أصبح بالكاد يتنفس، ويقول كل منهم:

-لست منا!

ليتبدد نحيبهم لأول مرة في ذلك التيه، ويحل محله الغضب،
وينقضُّون على "حازم".

عدت من جديد لمراقبة الطريق الخالي من أي شيء. الطريق يبدو كأن من صممه أمسك بمسطرة ووضعها في منتصف خريطة سيناء ثم جرَّ خطأً طويلاً.

وأخيراً ظهرت على مسافة، لافتة على جانب الطريق، لست من عشاق اللافتات بالطبع، لكن ظهورها في المشهد جعلها تبدو ونيساً أليفاً سنمر بجانبه سريعاً. اقتربنا منها وقراءها "أكرم" كمحاولة لكسر ذلك الصمت، بصوت عالٍ وبدون أي انفعال، بفتح النون وتسكين الخاء:

- نَخَل.

فقلت له مصححاً، بكسر النون والحاء:

- نِخَل.

ظنَّ "أكرم" أنني أمزح، فنظر إليّ متسائلاً. لا أذكر متى ولا أين قرأت تلك المعلومة، لكن أحبته عمومًا:

- زمان سمّوها نِخَل، عشان رملتها ناعمة جدًّا، كأنها متغرّبة

من منخل.

قبل أن يهز رأسه قال "عمر" الجالس بالخلف فاتحاً ساقيه بعرض الكنبه كلها، عاقداً ذراعيه على صدره، نصف مغمض العينين:

- غلط.. اسمها نَحْل.. زي ما قلت إنت يا "أكرم" في الأول.

علاقة "عمر" بالمعرفة العامة علاقة كاملة الانقطاع، فالتفت له بفضول وحذر طالباً توضيح، فقال بهدوء:

- اسمها نَحْل.. عشان دي سفرية بلح أساساً.

"لعنة الله عليك يا عمر!".

لم أستطع كتمان الضحك الذي شاركني فيه "أكرم"، وتبادلنا فاصلاً من السباب واللعنات قبل أن نعود ثلاثتنا لقواعد الصمت سالمين من جديد. قرابة ساعة أخرى مضت ولم يتغير أي شيء إلا الأغاني التي فقدت كثيراً من بهجتها. كل منا يفهم الآخرين تماماً.. لا داعٍ لمحاولة بدء أي موضوع أو التظاهر بالتفاؤل أو الإيجابية.. لنستسلم في هدوء للصمت والرمال والملل. إلى أن تكشّف لنا فجأة في الأفق مشهد قلب أحاسيسنا رأساً على عقب من دون إنذار. كانوا واقفين بالعرض قاطعين المشهد والرؤية والطريق وسيناء.. كانوا واقفين كأبطال عظماء جبابة شامخين كالأوتاد العملاقة.

جِبَال!

شهقة طويلة صادقة من الأعماق انطلقت من جوف ”عمر“..
”أكرم“ سقط فكه متدليًا.. وأنا دمعت عيناى، ولم أدرِ السبب.
هيبة لا تصفها كلمات.. شموخ يجبرك على الانحناء، ذلك الذي
يفيض من الجبال التي تجلّت أمام أعيننا معترضة مشهد
السماء والصحراء والطريق المستقيم البائس.

لا إراديا خَفَضَ ”أكرم“ سرعة السيارة، واستمرينا في الاقتراب من
الجبال المقدسة، ومع كل متر إضافي كنا نقتربه، كانت الجبال
تزداد شموخًا ووضوحًا .. تكاد تفاصيل نتوءاتها وانحناءتها أن
تنطق.. يتخلل صخورها العملاقة المتراسة عشوائيًا بنظام -نعم،
عشوائيًا بنظام- يتخللها ارتدادات طويلة بارتفاع الجبل كاملاً..
وبعض هذه الأخاديد الطويلة يتخذ ألوانًا رائعة مغايرة للون
الجبل الأصلي، ليست درجات من البني والأصفر فحسب، بل
اتجهت في بعض الأخاديد إلى الأخضر البترولي والأحمر النحاسى،
بما في ذلك صخور وأتربة تلك الردود الجبلية.

صرنا على بُعد أمتار قبل أن يخترق بنا الطريق تلك البوابة
الجبلية المهولة، فنطقت الشهادتين، لا خوفًا بل إجلالًا.. وأخذ

”عمر“ يردد تسبيحًا.. وحبسنا أنفاسنا.. تكاد الجبال أن تُخرج ذراعين مفرودتين عن آخرهما احتفاء بدخولنا.

التوى الطريق ولففنا معه، لتتكشف أمام أعيننا أجمل لوحة طبيعية مجسمة رأيناها أبدًا.. سلاسل جبال وراء جبال أمام جبال بجانب جبال.. بعضها يتلاحم وبعضها يعلو بعضًا وبعضها يقف منفردًا.. أما الطريق المستقيم البائس فقد دبت فيه الروح أخيرًا وصار يتلوّى وينحني وسط الجبال انحناءت شديدة للغاية، بعضها يجبرك على الدوران لقراءة المائة وثمانين درجة.. وكأن الطريق يجبرنا على الطواف والالتفاف حول الجبال لنشاهدها وتشاهدنا من جميع الزوايا.. شعرت أن كل جبل نجتازه يدير عنقه ويلوي رأسه ناحيتنا إلى أن نغيب عن نظره.

كسّر ”عمر“ حاجز الصمت المهيب بصوت مرتعش جاهد كي يخرج من فمه، طالبًا أن أغلق السي دي.. فانتبهت أنه يدور أصلًا، وما كان صوته يتجاوز أذني الخارجية.. فغمغمت ما معناه أن الصمت أفضل فعلاً وأكثر ملاءمة لما نحن فيه، وأخرجت السي دي، ليُخرج ”عمر“ من ميدالية مفاتيحه ذاكرة مؤقتة (فلاشة) ويعطيني إيها دون كلمات.. ودون رد منّي وضعتها في مكانها المخصص بكاسيت السيارة، رغم رغبتني في عدم سماع أي شيء في العالم الآن، لكن لا مجال لأي جدال كذلك.. وما أن بدأت الفلاشة اللعينة في تشغيل الأغاني المخزنة عليها، وقبل أي كلمة اعتراض من جانبي قال ”عمر“ كالمسحور:

- هات تالت فولدر.

نظرت إلى "أكرم" لأجده في حال غريبة من الانبهار والصمت واتساع الجفون.. ضغطت الزر المطلوب مرتين ففتح الكاسيت ثالث مجلد داخل الفلاشة، ليكتب الكاسيت اسمه لثوانٍ قبل أن يلعب أولى أغنياته. كان اسم المجلد "بودا بار". فقال "عمر" الذي تمنيت ألا يزيد حرفاً:

- هات رابع أغنية.

وبعد أن ضغطت الزر المنشود ثلاث مرات، بدأت تلك الأغنية الرابعة المسماة "Spiral Dance". وكأنها فُتحت أبواب السماء. ما كان ينقصنا إلا تلك فعلاً.. بدأت تلك الـ"أغنية" بنداء طويل عميق غير محددة كلماته إطلاقاً، لكنه نداء صادق.. صادق للغاية ونابع من قلب أولئك المؤمنين بالحقيقة. لم يكن نداء استغاثة أو احتفال أو عويل، بل كان كنداء من سيخبرك بكل ما لم تعلمه من قبل. لو نطقَت الجبال فأنا أقسم أن صوتها لن يختلف كثيراً عن هذا الصوت.. بعد هذا النداء الطويل توالى الطبول في القرع تصاعدياً في رتم مهيب.. رتم يدعو، بل يأمر بالاصطفاف والخشوع.. والطريق يأخذنا ذات اليمين وذات اليسار.. ثم بدأ المنشدون في تلك الأغنية، في التمتمة.. همهمة.. زفرات عميقة وقوية وخاطفة.. كأنهم ينفثون الروح خارج أفواههم لتبتعد عنهم سنتيمترات قبل أن تخترقهم عائدة من جديد.. والجبال حولنا صامدة، تراقبنا، وتحميننا من كل الشرور.

وجبال.

- حَيَّ.

وجبال.

- الله أكبر "هُووووه.. حَيَّ.. هُووووه" -ر.

الله أكبر.

لا إله إلا الله.

وجبال.

ساعتان -غالبًا- مرتا علينا ونحن على هذه الحال، التحمنا خلالهما بالجبال والإنشاد تمام الالتحام. ساعتان تَمَّت فيهما إعادة هيكلة كاملة لتكويناتنا الجسدية والمادية والروحية والفكرية والمعنوية والنفسية والعاطفية والفلسفية.

obeikandi.com

ينقضّ اليهود العالقون في التيه لأربعين عامًا على ”حازم“..
الذي يظل على يقينه الخاطئ أنه في حلم وينتظر الاستيقاظ،
فلا يستيقظ. إذن فلينتظر الهلاك القادم لا محالة، غالبًا
سيمزقونه بأيديهم بعد أن يحولونه إلى كُرّة يلعبون بها وتسليمهم
في أعوامهم الطويلة، ويدحرجونها عبر الشقوق وهم يركلونها
ويجرون وراءها، وهم ينتحبون كعادتهم.

- لست منا!

يقولها كل واحد منهم، ويبدوون الانقراض جميعًا على
”حازم“ الذي ينكمش في نفسه ويداري وجهه وصدرة بذراعيه..
تهتز الأرض بعنف.. يتصاعد تزلزلها بسرعة.. ثم تتشقق فتُفتح..
ويختفي كل هذا، ويهوي ”حازم“ في فراغ كامل.. يستمر سقوطه
لوقت طويل دون أن يدري أين المستقر.. يتنفس الصعداء
على نجاته من تيه الهضبة، ويتساءل بينه وبين نفسه عن
ميعاد استيقاظه أو ارتطامه بأي أرض.. فيصطدم بالفعل بأرض
صحراوية، بعنف كاد يحطم عظامه.. يتأوه ”حازم“ منهكًا..
بالكاد يفتح عينيه ليدرك أنه في ظلام ليل كثيف النجوم عديم

القمر.. بالكاد يصدر منه أنين واهن.. يسمع أصواتًا بالقرب منه، أصوات مجموعة من الحيوانات منهمكة في التهام فريسة ما.. ببطء يجول ببصره في المكان ليخترق ظلامه.. يستطيع الآن تمييز تلك الكتلة الضخمة السوداء.

قراية عشرة ضباع منكبة على تمزيق لحم جثة جمل ضخمة.. يجاهد "حازم" من جديد ألا يصدر أي صوت.. يحاول النهوض فلا يطعه جسده المنهك.. يشعر بأنف حيوان ذات شعيرات منتصبة تتشممه وتتحسس ما تحت رأسه من الخلف.. يسمع أنفاس ذلك الحيوان وهو يتشممه مليًا، ويحوم من حوله ليكمل فحصه.. هل يمثل أنه ميت، أم يقظ ويدعي القوة؟ يقف الحيوان أمامه واضعًا رأسه قبالة رأس "حازم".. تلتمع العينان الحزيبتان لذلك الضبع في الظلام.. ويعوي في وجه "حازم" الذي يكاد يتجمد.. يأتي ببطء زميل آخر للضبع ممسكًا بقطعة من اللحم تتدلي من فكه، وقد لوّثته بدماء طازجة زادتة قبحًا على قبح.. يظهر زميل قبيح آخر من وراء ظهره الأحذب قادمًا ليشارك المأدبة الجديدة.

"كابوس.. هذا حتمًا كابوس".

يسمع "حازم" صوتًا آدميًا قادمًا من بعيد، تنتبه له الضباع وتتحفز.. تكشف عن أسنانها مقدّمًا لذلك العابر القادم.. وكأنها أمنت شر "حازم" تمامًا ولا تعيره أهمية، لا يقلق أحد من أي قطعة لحم على سفرتة.. يقترب الرجل الذي يجرّ

جملين صامتين كالنباتات، ويرى المشهد فيهشّ الضباع بأصوات كالزمجرة، مع إلقاء الكثير من الطوب عليها.. تصيب "حازم" إحدى الأحجار في رأسه فيكتم الصراخ ويلعن الرجل في سرّه، وتبتعد الضباع بالفعل.

يساعد الرجل "حازم" على الجلوس، ويتحسس "حازم" رأسه، ويأخذ الرجل قربة ماء يسقي منها "حازم" الذي يبدأ في استرداد عافيته.. ويسأله الرجل:

- هل أنت من الحجاج؟

حجاج في سيناء؟

يومئ "حازم" برأسه أن نعم، فيساعده الرجل على النهوض ويجعله يمتطي أحد الجملين ويحدّثه أثناء سيرهما أن الأمور لن تكون مستقبلاً أبداً كما هي الآن، وأن القلعة على وشك الاكتمال.. وأن السلطان "قنصوة الغوري" يشرف بنفسه على مراحلها النهائية، وأن القلعة ستكون محطة استراحة خمس نجوم للحجاج الذاهبين والعائدين. و"حازم" طوال كل هذا لا يردد إلا كلمتين:

- نعم.. نعم.

يسمعان أصواتاً من جديد، ولا يُعيرها السقّا -الذي يبدو أنه سقّا- أي اهتمام.. تقترب الأصوات، ويتضح أنها قافلة لأناس يبدوون من ملامحهم وهيئاتهم أنهم ليسوا من هنا بأي حال.

يستمر السقا في مسيره، بينما يتوقفون هم وتحفّز وقلق كبير يبدو على وجوههم. يقترب منهم السقا ويوقف جمليه ويسألهم:

- هل أنتم من الحجاج؟

تسري همهمات وصرخات مكتومة فيما بينهم، ويقول كبيرهم والخوف يكسوه:

- نعم، دعنا نمرّ.. في سلام.

يطمئنهم السقا -الذي يبدو كسقا- أنه لا ينوي شرًا، بل ويدعوهم إلى القلعة التي قاربت على الانتهاء، بينما يرى "حازم" بعض الصلبان المعلقة بسلاسل في صدورهم، والسقا يؤكد لهم أن القلعة ستكرمهم، وهم لا يكتمون قلقهم ويسألونه عن أبعد طريق عن القلعة يمكنهم اجتيازه، فيصفه لهم ولسان حاله يقول لهم "براحتكم، إنتو الخسرانين".. ويمضي كل منهم في طريقه. فيسأل "حازم" السقا بأقل عدد ممكن من الكلمات:

- حجاج؟ للقدس؟

- لا.. إنهم أوروبيون متجهون إلى دير سانت كاترين.

يستمر السقا في جرّ الجمليين وهو يصف لـ "حازم" القلعة، ويؤكد له أن الأمور لن تكون أبدًا كما هي الآن، وأن السلطان قنصوة الغوري يشرف بنفسه على مراحلها النهائية، و"حازم"

لا يكف عن التردد:

- نعم.. نعم.

وأخيراً يصل إلى سور المدينة ويدخلانها ويسيران في ممراتها إلى أن يصلا إلى القلعة، التي يبدو فعلاً أنها قاربت على الانتهاء، ورغم سواد الليل، فالعمل يسير على أشدّه بمساعدة مشاعل كثيرة.. وتستطيع أن تميز السلطان بسهولة من شموخ وقفته وخشوع كل من حوله. يوزّع السلطان تعليماته وأوامره هنا وهناك. ينتشر الخبر بين العمال عن وصول السقا فيتحركون بنظام، خمسة عمال فخمسة عمال، يشربون ويعودون. يمشي قنصوة الغوري ببطء واضعاً قبضتيه في وسطه وهو يتابع اللمسات الأخيرة لاستراحة الحجاج، ويتجوّل بعينه في أرجاء المكان لتصطدم عيناه بعيني "حازم" مباشرة.. يحدق فيه بثبات، ويرفع سبابته في الهواء قليلاً، فيظهر رجل قوي الشكيمة والجسد والمظهر يأتي مهرولاً.. يهمس السلطان في أذنه بكلمتين وهو يشير إلى "حازم"، فيهرع الرجل ومن ورائه فرقة مسلحة برماح نحوه. يكاد "حازم" يرفع ذراعيه في الهواء ليستسلم، لكنهم كانوا أسرع وأسقطوه أرضاً ووضعوا رماحهم في جنباته وظهره مع الضغط.. يشعر "حازم" أنه لو تنفس ستخترقه أسنة رماحهم.. يقترب منه الرجل، ويقول له بغضب:

- تلك هي المرة الثانية.. لكنها الأخيرة.. دمك جزاؤك الكفرة الآتية.

- "ماذا فعلتُ في الأولى؟".

ثم يأمر ذوي الرماح أن يطردوا "حازم" خارج المدينة، فيلقي "حازم" نظرة أخيرة للسقا الذي يبدو كسقا، فيودعه مؤكداً له أن الأمور لن تكون مستقبلاً أبداً كما هي الآن. فيقتاد المسلحون "حازم" للبوابة ويلقونه خارجها.

بمجرد أن يقع "حازم" أرضاً ويتوقف عن التدحرج، حتى يرى التوقيت صار نهاراً، ينهض سريعاً لاستطلاع ذلك الضجيج، ليرى فوضى عارمة.. فلؤل جيش مذعورة تهرول هرباً، مسلحة ببواقي بنادق قديمة ومدافع ذوات عجلات وخيول وسيوف وأعلام ممزقة.. جيش مهزوم بكل معاني الكلمة. تدوي في رأس "حازم" المعلومات، أن هؤلاء هم جيش مشترك يتألف من الدروز والأتراك معاً، دخل مصر في الحرب العالمية الأولى ليحارب محمد علي، فقام معه الجيش المصري باللازم ويزيد. تقترب من "حازم" الفلول الهاربة المضطربة، ويمسكه أحدهم يصيح كالمجانين بلغة غريبة:

- أمسكت جندياً.. أمسكت جندياً!!

يكثر من حول "حازم" الجنود المرتبكون، ورعب جلي يسيطر على حركاتهم.. يبدون كمن لا يفكرون سوى في الهروب.. كل منهم يحلم الآن بالعودة إلى منزله برأسه فوق عنقه.. يظهر مهرولاً قائد لهم، أعلى رتبة.. يطلعونه على "حازم" الأسير الجديد.. ينظر إليهم بغير اهتمام.. ويقول بارتباك:

- اقتلوه.. اقتلوه ودعوه وشأنه!

ثم يكمل ركضه هاربًا، ويخرج أحد الجنود المطيعين سيفه من غمده، وينوي أن ينقذ أمر قائده، فقط ليتفرغ لمبتغاه الأساسي، الهروب إلى الديار.

يمسك أربعة جنود آخرين أطراف "حازم" بتوتر، ويجذبونها كلُّ في ناحية، ليصبح "حازم" كالذاجة المخلية من العظم قبل شيها على الفحم.. ويرفع الجندي ذو الأعين الزائغة سيفه عاليًا باضطراب، ويهوي به إلى عنق "حازم".

obeikandi.com

بعد خروجنا من ملحمة الجبال، والغسيل الروحاني، كنت واثقًا أننا تغيرنا بالكامل.. تغيرنا للأبد. لا أعلم تحديدًا ماهية تلك التغيرات، لكنها حدثت.. أراها بداخلي وأسمعها.

استقام الطريق الذي يصاحبنا من زمن، بعدما تلوى كثيرًا عبر سلاسل الجبال. سرنا قرابة عشرة كيلومترات قبل أن يسطع علينا مشهد خلّاب آخر، البحر ببساطة.. لكننا كنا على مرتفع فرأيناه ممتدًا من زاوية علوية رائعة، وانتهى بنا الطريق بطريق آخر عمودي عليه اتجهنا منه يمينًا نحو دهب، فإذا بالطريق يرتفع بنا بزاوية ميل في منتهى الحدة.. زاوية حادة للدرجة التي أشك في استطاعة أي سيارة أن تصعد بها بسهولة. رويدًا اختفى البحر من يسارنا وحل محله سلسلة جبال جديدة، استمرت متصلة إلى أن وصلنا بوابة دهب بالفعل، بعد أن جاهدت السيارة في التسلق وجاهد "أكرم" في التحكم بها.

بعد السؤال وطلب العون وصلنا إلى منطقة الشواطئ، دهب صغيرة على أي حال، لن أطيل عليك في تفاصيل ما حدث وما رأيناه، لكن باختصار، كرهناها من أعماق أعماقنا. كان المشهد

وكأن مهرجانًا عالميًا يضم كل بلدان العالم تم نصبه هناك.. كمّ البنات غير عادي.. البيكيني هو الزي الرسمي.. الشباب يرقصون في كل مكان.. موسيقى صاخبة أينما تذهب.. لا يوجد موتوسيكل مائي بالطبع، عرفنا أن السبب كي لا تتأثر الشُّعب المرجانية.. لكن البيتش باجي موجود بغزارة، بغرض السفاري. فندق وراء فندق وكامب وراء كامب، ولم نجد غرفة واحدة خالية. كنا نسأل دون اكتراث بالأساس.. كانت كل مكونات ذهب هي ما نبحث عنه بالضبط.. لكن هيهات.. كان هذا قبل التحول الجذري المورفولوجي الكوني الأيوني الذي تعرضنا له في أواخر طريقنا إلى هناك.

بعد ساعة من البحث الفاتر وجدنا ثلاثة أسرّة في عنبر يضم ثمانية، في كامب بسيط.. تتميز ذهب أنها متفاوتة المستويات بشدة.. تتدرج فيها مستويات المعيشة من الشاطئ المجاني الذي لا صاحب له، الذي أخبرنا "عمر" عنه، إلى كامبات متفاوتة المستوى هي أيضًا، إلى فنادق من نجمتين إلى خمس نجوم.

لم نجد غير تلك الأسرّة الثلاثة ورفضنا بالطبع.. ولم يعجبنا الشاطئ المجاني.. ولم يعجبنا أي شيء. كنا في حالة من الإرهاق رهيب، لكننا لم نستسلم لها ولم نقبل قضاء تلك الإجازة المسكينة في مكان لا نرغبه. تبقت معنا رصاصة واحدة، سنذهب إلى طابا، ونقبلها كيفما ستكون.. لم يعد لدينا طاقة للمزيد. كان الخوف

فقط من ألا نجد فيها أماكن شاغرة. تعرّفنا إلى شاب بدوي لطيف بسبب سؤال من "عمر" عن حشيش. كان ذلك البدوي ودودًا جدًّا، وإن لم يكن "ديلر".. تجاذبنا أطراف الحديث وعرف موقفنا وحالنا بالتفصيل.. هزّ رأسه بتفهم كامل عندما حكينا له عما فعلته فينا الجبال. وبعد أن انتهينا، عرف أننا نطلب النصح في تلك الأرض المجهولة. نصحنا بتجاهل طابا وحدّثنا جازمًا عن المكان الصحيح الذي ينبغي علينا الذهاب إليه والارتقاء في أحضانه. قال إنه مكان يقع في نوبيع الواقعة بين ذهب وطابا.. اسمه "راس شيطان".

راقنا الاسم، ولم نسأله عن تفاصيل المكان قدر ما سألناه عن موقعه بالضبط، "أي حاجة وخلص".. فأخبرنا أنه بعد نوبيع بخمسة كيلومترات، أي خمسين كيلومترًا من ذهب، وأخبرنا بعلامة مميزة للغاية نستدل بها على المكان: مدرعة شرطة!

سألناه متعجبين من الاستدلال على مكان بسيارة، فضحك وأكّد لنا أن نشق فقط في كلامه، خصوصًا أن راس شيطان لا لافتة تدل عليها، ولا هي ظاهرة من على الطريق.. فقط المدرعة والتبّة من ورائها.

لا بأس.. هي في طريق طابا بالأساس.. لنرّ.

ودّعناه، وتركنا ذهب منهكين، غير آسفين بالمرة.

انعكس ميل الطريق ليكون منحدرًا ساحقًا لا توصف خطورته.. نسيت أن أقول إنه اتجهان دون فاصل بينهما،

بالكاد حارة مرورية لكل اتجاه.. اللافتات التحذيرية كل مترين تقريباً، معظمها يؤكد ضرورة أن تجعل تروس السيارة "معشقة" على سرعة مناسبة، بأن تجعل "الفتيس" على الثاني أو الثالث.. وَضَع الفتيس على الـ"مور" يساوي كارثة أكيدة.. لكن "أكرم" كان سائقاً ماهراً فعلاً.. وانتهى بنا المنحدر المرعب لـ البحر من جديد، ونستمر في الطريق بمحاذاته.

نويج.

أهلاً وسهلاً.

استمرينا.. وضاق الطريق.. وترقبنا.. وظهرت المدرعة.

فهمنا لماذا استخدمها زين البدوي في وصف المكان بثقة، هي ببساطة منزوعة الإطارات. تستطيع أن تعتبرها نقطة شرطة ثابتة، مكوّنة من ضابط شرطة شاب وبعض العساكر المسلحين وعسكري يمسك بآلي يبرز من فتحة في أعلى المدرعة، وكان من ورائهم تبة بالفعل.. ومنحدر تراي وحيد يقودك إلى الارتفاع فوق تلك التبة الصغيرة والاتجاه نحو البحر حيث راس شيطان. رحلتنا تضاريسية بحثة حتى الآن.

ألقينا السلام على الضابط الذي ردّه برتابة استغربناها، توقعنا منه أن يستوجبنا بخصوص أي شيء من باب التسلية بدلاً من ذلك الجلوس الصامت الذي يبدو أنه يطول.. ذلك أفضل عموماً.

صعدنا التبة بسيارة "أكرم" البطلة.. واستوت الأرض.. فوجدنا بوابة بدائية من عارضة ترفع كالشادوف. وقبل أن يضرب "أكرم" نفير سيارته رأينا شخصاً بسيطاً خرج من كوخ جانبي ممسكاً بكوب من الشاي، ورفع تلك العارضة دون أي كلمة.. لم ينظر إلينا حتى.. فقط ارتشف رشفة طويلة من الشاي، إلى أن عبرنا وأعاد العارضة لمكانها وأعاد جسده إلى الكوخ.

بدأت ملامح المكان تتضح، أشجار قليلة.. أرض مستوية يحدها ميمناً جبل شاهق عريض يصل إلى شاطئ البحر الذي لم نره بعد، وكأنه يضع حدًا لذلك المكان الذي يستحيل بالفعل أن تراه مصادفة، ما لم يدلِكَ عليه أحد، ويسارًا سور بدائي مصنوع من الخوص، وأماننا انتهى الطريق، ترجلنا وسرنا باتجاه البحر.. ليعترض طريقنا مبنى صغير من الطين، التففنا حوله وصرنا أمامه.. في قلب المكان صرنا.. "زين" كان محققًا.. فهمنا كل شيء.. زالت عنا هموم الدنيا.. شعرنا بالطمأنينة والألفة.. تنفسنا وارتحنا ووجدنا المكان وأنفسنا، ووجدنا.. ما كنا لنريد أكثر من هذا.

إذن، ذلك هو الاختيار.

"راس شيطان".

obeikandi.com

- أمسكت جنديًا.. أمسكت جنديًا!

- اقتلوه.. اقتلوه ودعوه وشأنه!

ثم يكمل ركضه هاربًا.

يرفع الجندي ذو الأعين الزائغة سيفه عاليًا باضطراب، ويهوي به إلى عنق "حازم" الذي يصرخ ولا يطاوعه صوته من جديد، وتتزلزل الأرض من جديد، وتنشق الأرض من جديد، ويهوي في فراغ جديد من جديد.

يؤمن "حازم" أن هذا أطول كابوس مر به في حياته، ونقسم نحن له أنه ليس بكابوس. يهوي بسرعة مهولة في العدم، إلى أن تقل سرعة هبوطه إلى العُشر فجأة، وتتحول رحلة هبوطه إلى انسياب ناعم. تظهر النجوم في السماء، ويبدأ "حازم" في الاستمتاع بذلك الهدوء النسبي والانزلاق الهادئ في الهواء. يرى على مقربة منه جسدًا آخر يهبط بنفس السرعة تقريبًا، رجل يرتدي مظلة باراشوت. يتحسس "حازم" تلك الحقيبة على ظهره ليجدها مبروطة بأحبال، فينظر إلى الأعلى ليجد أنه

يتدلى من مظلة هو أيضًا.

تظهر الأرض السوداء أخيرًا، ويقترّب منها بسرعة معتدلة.. يعلم أنه لا يعلم أصول الهبوط بالمظلة، فيقرر بالفطرة الركض باتجاه ميل هبوطه بمجرد ملامسة قدميه للأرض.

يصل للأرض في جنح ظلام الليل، فيمتص الصدمة بالجري في الاتجاه المذكور، بنفس تكنيك القافزين من الأوتوبيس أثناء سيره. تفكير سليم، لكن تنقصه خطوة مهمة، كان عليه بعد امتصاص صدمة الهبوط وتجنب التواء الكاحل أو كسر عظمة الفخذ، أن يلتف ويعود سريعًا للمظلة نفسها ليطيها بسرعة، كي لا تستقبل الهواء كالمصيدة وتحتويه لتتحول بعدها إلى زحافة جرّ ذات قوة جبارة، وهو ما حدث فعلاً.. بعد أن ركض لأمتار.. تجذب الأحوال ”حازم“ بشدة لتطرحه أرضًا، ويشعر بعدها كأن قطارًا توربينيًا يسحله للخلف.

بعد الزحف لأمتار كثيرة، لحسن حظه تتعلق أحوال المظلة بصخور كبيرة وتتوقف رحلة السحل. يتحسس ”حازم“ حزامه ليجد خنجرًا حادًا، فيسحبه ويقطع به الأحوال، ليتحرر أخيرًا.. يتحامل ويجلس على صخرة قريبة، ويفتش داخل حقيبته فيعثر على زجاجة مياه ليشرب منها، إلى أن يشعر بيد قوية تربت على كتفه، فينظر من مكانه ليجد أمامه شخصًا يعرفه جيدًا.. هو في شبابه الآن، رغم أن ”حازم“ يعرفه كهلاً.. لكنه يعرفه حقًا.. نسبة الخطأ في التعرّف على هذا الشخص تساوي

صفر رغم الظلام.. يعرف "حازم" يقينًا أنه وجهًا لوجه مع
"أرييل شارون".

وهنا كانت البداية الفعلية للعبث.

obeikandi.com

وَفِي أَثْنَاءِ كُلِّ هَذَا، فِي أبعادٍ زمنيةٍ ومكانيةٍ أُخْرَى، يَقِفُ "قَائِظٌ"، الَّذِي هُوَ صُورَةٌ طَبَقَ الْأَصْلَ شَكْلًا مِنْ "واعظ". اختلافاتهما رُوحِيَّةٌ وَعَقَائِدِيَّةٌ فَحَسْبُ.. مَعَ اخْتِلافِ نَوَايَا مَهَامَهُمَا بِالطَّبْعِ، مِنْذُ بَدْءِ الْخَلْقِ حَتَّى الْآنَ. يَقِفُ "قَائِظٌ" مُحَاطًا بِمَشَاعِلَ كَثِيرَةٍ، وَأَمَامَهُ تِلْكَ الْمَخْطُوطَةُ مَفْرُودَةٌ تَتَعَلَّقُ فِي الْهَوَاءِ، إِنْ كَانَ هَذَا هَوَاءً. وَيَقِفُ مِنْ حَوْلِهِ جَنُودُهُ كَالْحُرَّاسِ، مُؤَلِّينَهُ ظُهُورَهُمْ، وَهُوَ مِنْهُمْ كَمَا فِي مَا يَفْعَلُ.

يَضَعُ أَشْيَاءَ وَأَشْيَاءَ عَلَى الْمَخْطُوطَةِ، وَيُبْعَثُهَا. يَبْدُو عَلَيْهِ غَضَبٌ مَا، كَوْنَهُ لَمْ يَحَقِّقْ مَا يَرِيدُ. يَمْسُكُ مَا يَشْبَهُ سَاعَةً رَمَلِيَّةً، يُقَلِّبُهَا.. يَرْجِّهَهَا.. يَفْتَحُ غِطَاءَهَا.. يَنْثُرُ بَعْضًا مِنْ رِمَالِهَا عَلَى الْمَخْطُوطَةِ.. وَيَتَلَوُّ أَشْيَاءً.. وَيُبْعَثُ أَشْيَاءً. تَبْدُو مُهَمَّتَهُ لَيْسَتْ بِتِلْكَ السَّهُولَةِ. نَجَحَ فَقَطْ إِلَى الْآنَ فِي الْإِقَاءِ "حَازِمٌ" فِي غِيَابِهِ زَمَنِيَّةً.. لَكِنْ هَذَا جُزْءٌ سَهْلٌ يَحْدُثُ كَثِيرًا، وَيُظَنُّهُ الْبَشَرُ أَحْلَامًا، وَيَنْسَوْنَ مَعْظَمَهَا عِنْدَمَا يَعُودُونَ. الْجُزْءُ الصَّعْبُ هُوَ إِيهَابُ الْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ لـ "حَازِمٌ" دَاخِلَ حَلْمِهِ الْمَفْتَرَضِ.

عَمُومًا، يَقْتَرِبُ "قَائِظٌ" كَثِيرًا مِنْ تَحْقِيقِ مَا يَرِيدُ.. يَقْتَرِبُ جَدًّا.

obeikandi.com

يقف "حازم" أمام "شارون"، تختلجه مشاعر كثيرة، بينما يقف "شارون" قوي الشكيمة بهدوء وثقة، وثمرّة حماس كبير يشعّ من عينيه القبيحتين. يسأل "شارون" "حازم" بالعبرية، فيفهم بسلاسة كاملة:

- هل أنت بخير؟

ينقبض قلب "حازم" أكثر، وينظر إلى ملبسه ليجد إجابة سؤاله الذي لم يسأله.

"جندي إسرائيلي؟!".

يرفض التماذي فيما يظنه حلمًا أكثر من هذا.. ويرفض أي حديث مع هذا الـ"شارون" تحت أي مسمى.. يرفض نفسه أساسًا بهذا الزيِّ وتلك الصفة.. ويجد نفسه يجيب سؤال "شارون" بالعبرية أيضًا ودون أي تحكّم منه:

- أنا بخير.. في انتظار تعليماتكم.

ينزعج "حازم" بشدة، ولا يجد مخرجًا سريعًا من ذلك المشهد

المقبض.. يطلق السباب بكثافة، بصوته الذي لا يخرج، ويقرر أن يتحمل ويصبر إلى أن تتزلزل الأرض وتُفتح من جديد، ليهوي في أي زمان أو حدث آخر.. لكن شخصيته الجديدة وتلك اللغة وتلك الرفقة وذلك الحدث يقبضون قلبه حقًا.

يأتي بهمة المظلي الآخر الذي تتضح ملامحه الآن، بعد أن أتم هبوطه بنجاح على مقربة منهما.. يؤدي التحية العسكرية لـ"شارون" الذي يطمئن عليه بدوره، ويأتي ثالث.. فيقفون صفاً أمام قائدهم الذي يقسم المكان جغرافياً إلى ثلاث مناطق، يتولّى كل منهم فيها تلقّي المظليين الآخرين المنتظرين، وتجميعهم جميعاً عند نقطة التقاء أمرهم بها بعد أن أخرج الأربعة بوصلاتهم. كانت تلك النقطة تبعد ثلاثة كيلومترات عن موضعهم، في نِخل.. أمام ممر متلا.

"كل هذا حدث في نِخل؟"

ينطلق ثلاثتهم بالفعل، كل إلى منطقة تكليفه. مهارة واحترافية وتحركات محمومة وكلمات قليلة بصوت خفيض، يجمع "حازم" المظليين الذين هبطوا في محيط مسؤوليته بالعشرات.. يكثر الهابطون من السماء ويعيدون ترتيب أنفسهم ويصطفون تحت قيادة "حازم".. يتحرك ذلك الجيش الصغير حسب الميعاد إلى نقطة الالتقاء المنشودة.. دقائق ويظهر الفريقان التاليان.. يفوق كل منهما عددًا ضعفي جيش "حازم".

يصطفون ويتمركزون تحت قيادة قائدهم المؤقت "موردخاي

جور“.. ويجلسون متأهبين في سواد الليل، في انتظار قائدهم الفعلي “شارون” قائد الفرقة ٢٠٢ مظلات.. الذي انطلق قبل تجمعهم ليكمل أولى مهامه الخطرة في ذلك اليوم.. التاسع والعشرون من أكتوبر ١٩٥٦.. العدوان الثلاثي.. كانت مهمته الحالية هي تجميع فرقته المظلية بالعديد من فرق المشاة والمركبات والمدرعات التي انتشرت بالفعل في سيناء، ليصبحوا جميعًا جيشًا بريًا كاملاً.

تمرّ الدقائق عليهم كالدهور.. لا ينطق أيهم بكلمة.. يعوي ذئب من مكان ما، ثم صمت مطبق، عدا من صوت الرياح.. ينتظرون، وتمرّ ساعتين.. إلى أن يشقّ هذا الصمت المترقب صرير وجلبة ماكينات ومدرعات تقترب.. يتنفس الجنود من جديد، إلا “حازم” المحاصر بمئات منهم، والآن تنضم إليهم معدات حربية، فينقبض قلبه كما لم ينقبض من قبل.

يعلو صوت الحديد المتحرك أكثر وأكثر، إلى أن يظهرها جميعًا فعلاً بقيادة “شارون” الذي يبث الثقة والحماس في قلوب جنوده، عدا صديقنا المحاصر مسلوب الإرادة.. يتبادلون التهاني جميعًا على نجاح الجزء الأول الصعب من الخطة.. يشعر “شارون” وجنوده بالنشوة العارمة والحماس الجارف، كون التحام قواتهم معًا أعطاهم الصلابة الكافية لترسيخ أقدامهم في تلك المعركة على أرض سيناء التي لم يطوؤها من قبل.

وبعد إعادة التمرکز والتوزيع، يسأل “موردخاي” “شارون”:

- متى نبدأ؟

فتجنح الوحشية الجينية في دماء "شارون" إلى ما هو أوسع مدًا من هدف قياداته من تلك الحرب. كانت مهام "شارون" بعد ذلك الالتحام تتلخص في التقدم والاشتباك مع الجيش المصري حين ملاقاته، إلى أن يحتدم القتال، فتجبر إنجلترا وفرنسا العالم وتجّره إلى قرار وقف إطلاق النار بين الجيشين مع قرار يجبرهما على تراجع كل منهما ١٠ كيلومترات.. شرق قناة السويس لإسرائيل وغربها لمصر، فتدخل حينها كالضيف السميح قوات إنجلترا وفرنسا المرابطة في شمال بورسعيد لتأمين فصل القوات وتنفيذ قرارات مجلس الأمن، وتعود لهما سيادة قناة السويس بعد انتزاعها من الإنجليز بقرار التأميم الشهير. يتسم "شارون" بجذل وحشي، ويردّ ويكاد الزبد يسيل من شذقيه:

- لدينا مهمة فرعية أولاً.. سنبدأ بها.

لم يتقدم "شارون" -عن عمد- وانطلق يرسل تقارير متتالية لقياداته عن تخوفه من وجود قوات مصرية كامنة داخل المدينة القريبة، قد تخرج عليه من ممر متلا لتهاجمه من الخلف؛ يطلب الإذن باقتحام المدينة السهلة لتأمين قواته من ذلك الاحتمال. تُقابل جميع تقاريره بالرفض القاطع لابتعادها عن جوهر الخطة الأساسية، بالإضافة إلى معرفتهم بطبيعة ذلك الرجل المتعطشة لدماء المدنيين، فلم تحظ تحذيراته بالمصدقية

ولكن من الصعب أن تقنع ذئبًا يشم رائحة لحم سهل أن يغادره ويمضي. يصمّ "شارون" أذنيه عن أوامر قياداته، ويستدعي جزءًا ليس بقليل من الجنود، منهم "حازم" الموشك على الموت كمدًا واختناقًا، وبعض المركبات، لتكون تلك فرقة استطلاعية مهمتها استكشاف الوضع داخل ممر متلا.

تنفصل تلك الفرقة وتتجه للممر.. يدخلونه ببطء، مترًا مترًا.. و"حازم" في حالة هياج داخلي مكتوم، ويتمنى أن يُفرغ جميع طلقات سلاحه في كل مَنْ حوله.. لكنه كان كالمترج، بلا قدرة، إلى أن صاروا جميعًا بداخل الممر بالفعل وهم يتقدمون بحذر ويتلقّتون.

لتنهمر عليهم النيران من القوات المصرية بدون إنذارات ولا كلمات.. وبين المفاجأة ورد الفعل والرعب.. يتخذون قرارًا فورياً بالانسحاب، فينطلقون في تكثيف إطلاق النيران عشوائيًا وهم يتراجعون لتأمين غطاء يكفل الانسحاب.. لكن لم يكن المصريون بذلك الحنان، ويتم محو معظم تلك الفرقة من الوجود ولم يتبق منها إلا أشلاء وحطام مركبات.

يجنّ جنون "شارون" ويصمّ أذنيه عن الأوامر الصارخة التي انهمرت عليه بالانسحاب والاستمرار في الخطة الرئيسية، فيقود تعزيزات من فرقة أكبر، ويظل من ضمنها "حازم"، ولكن في اتجاه آخر كسبيل للمناورة، من ناحية الثمد ليلتف من خارج

ممر متلا.

يقتحم الثمد فجراً ويمطرها بالمدفعية الثقيلة ويستولي على نقطة شرطة سودانية تقبع بها، تابعة لحرس الحدود المصري. تمتزج أحاسيس ”شارون“ في تلك اللحظات بين الغضب على فقدان ما فقد في متلا، ونشوة الانتصار الصغير في الثمد. ورائحة المدنين في نخل تُسيل لعبه.. فيقرر الاستمرار.

وبينما هو وفرقته في الطريق لنخل، تظهر في السماء طائرة مصرية ميج ١٥، إلى الآن لا يعلم أحد يقيناً طبيعة المهمة المكلفة بها، ولا من أين أتت ولا إلى أين وجهتها، لكن ذلك الطيار المصري يأبى أن يمرّ على أبناء عمومته مرور الكرام، فيلقي عليهم تحية مصرية خالصة ويمُطرهم بوابل سخّي من الرصاص والقذائف، أفقدهم الكثير، قبل أن يمضي إلى مهمته الأساسية.

هنا يفقد ”شارون“ صوابه ويصير مبتغاه الشخصي المرتجّل هدفاً لن يحيد عنه مهما تكلف الأمر.

في الثلاثين من أغسطس يصل ما تبقى من تعزيزات ”شارون“ تحت قيادته إلى جبل حيتان الإستراتيجي. وبخبرة عسكرية يدرك سريعاً أن من يستحوذ على ذلك الجبل ويعتليه، فالمعركة بالتأكيد من نصيبه. في تلك الأثناء كان ”موشى ديان“ يكاد يُسمع صراخه في سيناء من فرط الغضب، بينما ”شارون“ ورجاله كالزومبي يسرون في طريقهم.

ينمو إلى علم "شارون" في تلك الأثناء أن الفرق الأولى والثانية والرابعة مدرعات مصرية تقدمت في مقابلتهم، فيستدعي فوراً باقي قواته المدرعة المتمركزة بالقرب من تلك المعارك، ويكلف "موردخاي جور" بقيادة فرقتي مشاة وبطارية صواريخ وبعض الدبابات لاحتلال الجبل، لتوفير الغطاء لـ "شارون" وجنوده بالأسفل.

وفي ظهيرة الواحد والثلاثين من أغسطس يصل "موردخاي" إلى الموقع المنشود، ليفاجأ بالقوات المصرية تحتل الأماكن الأكثر إستراتيجية، وتتبادل جميع الأطراف النيران الكثيفة والمدفعية الثقيلة، تتقهقر على أثرها القوات الإسرائيلية كالفئران، ويتم الانسحاب الكامل من تلك المعارك والعودة إلى المربع صفر أمام ممر متلا، بعد فقدان يومين كاملين والكثير من المعدات والأفراد.

لاحقاً -بعد العدوان الثلاثي- ستم إحالة "شارون" للتحقيق وتوجيه اللوم له على كل ما حدث، وسيتم حرمانه من العديد من الترقيات بعدها جزاء على كل ما حدث في هذين اليومين.

تعود الفلول المهزومة إلى موقعها الأصلي.. وينهمك "شارون" و"موردخاي" في تقييم الخسائر وإعادة ترتيب القوات، قبل أن يتجهون غرباً لبدء المخطط الثلاثي.. ويبدو على "شارون" اجتهاده في ألا يفقد أعصابه.. "حازم" يقف في الصفوف الأولى، ينظر إلى الأرض كل حين ويكاد أن يضربها بقدميه إن يستطيع،

لتتزلزل كالعادة وتنشق وتبتلعه وتخلصه من هذا الحدث..
وهو ما لم يحدث.

وفي تلك اللحظات ينجح "قائظ" في فك معضلته السوداء..
يفعلها.. ويهب القدرة لـ "حازم"!

الآن.. في الصفوف الأولى.. وسط هذا الجيش.. في ذلك اليوم
التاريخي.. يمتلك "حازم" الرغبة.. والقدرة.. والإرادة.. والاختيار..
والفعل.

دخلنا راس شيطان.. وهنا تعجز الكلمات عن الوصف!
على افتراض -ساذج ومنغلق- أن مقاييس الجمال عند
المرأة هي شعر ذهبي وبشرة برونزية وعين زرقاء و165 سم
و65 كجم، وهي مقاييس ليست حصرية في الجمال عمومًا..
لو افترضنا هذا، فوصف أي امرأة بتلك المواصفات لا يعني
بالضرورة إطلاقًا أنها جميلة.. قد تكون عادية، أو قبيحة ولها
تلك المواصفات.. وبالتبعية فذوات المواصفات الأخرى قد يُكَنَّ
ملكات جمال.

لذلك، فأني وصف لروعة هذا المكان لن تجدي شيئًا.. يجب
أن تأكل الشيكولاتة لتعرف ما نوعية وشكل المتعة التي يقولها
آكلو الشيكولاتة عنها. أي وصف لراس شيطان غرضه الوحيد
سيكون لرسم الصورة، وليس وصف المتعة.

شعرنا أن المكان هو صورة جديدة أو تجسيد ثلاثي الأبعاد
لما لاقيناه داخل الجبال التي مررنا بها.. شيء، أو أشياء ما
بداخلك عادت إلى نقطة الأصل لتستقر وتهدأ.. تشعر فعليًا أن
عالمك الفعلي وجميع الاجتماعات التي تحضرها والسيارات التي

تركبها على أسفلة أسود هي جميعًا محض هراء سخيف..
بينما الحقيقة النظيفة تقبع هنا!

عمومًا.. المكان بدائي لأقصى درجة تتصورها.. كان هذا المبنى الطيني الذي تركنا سيارتنا خلفه هو المطبخ.. أمامه كاونتر من الطين يقوم بدور الاستقبال والحجوزات وتلقي طلبات الطعام.. من ورائه فتحة نصف دائرية في الجدار معلق بأسفلها قطعة خشبية توضع عليها الأطباق المجهزة.. لوح خشبي مغبر معلق على الجدار مكتوب عليه قائمة الطعام وأسعار كل صنف.. ولاحظت شيئًا غريبًا، خلف ذلك الكاونتر على الأرض يوجد مشترك كهرباء يخرج منه خمسة شواحن موبايلات متصل بكل منها موبايل.. ليس هذا الغريب، بل أن بجوارهم أكثر من عشرين موبايلًا آخر موضوعين أرضًا في صفوف متجاورة. كان الشاب الجالس على الكاونتر يعدّ نقودًا من عملات مختلفة ويصنفها، كان منهمكًا في ذلك، وفي ترتيب باسبورات في داخل درج بدائي في ذلك الكاونتر الطيني.. بادرت بالكلام:

- سلام عليكم.

نظر إليّ مبتسمًا ورد بحفاوة:

- وعليكم السلام.

ثم عاد لما يفعله دون كلمات إضافية. أعلينا نحن أن ندير الحوار أم ماذا؟ نظرت إلى "عمر" و"أكرم" فوجدتهما في حالة

أشبهه بالتخدير، فاستكملت:

- عايزين نبات عندكم كام ليلة كده يا صاحبي.

نظر إليّ مبتسماً من جديد وطلب مني الانتظار قرابة نصف ساعة كونه مشغولاً جداً، ونصحنا أن نأخذ جولة في المكان حتى ذلك الحين.. شكرناه واسترقنا النظر داخل المطبخ، لنجد بضع شباب مصريين في انهماك كامل، وإن كانت ثمّة روح طيبة بادية في الجو العام.. ارتياح كامل مغلف بمرح خفيف وحيوية كبيرة ها هنا. قبل أن نستدير لتتجول في المكان أكدت على الشاب أننا ثلاثة وأنني أعتبر أننا حجزنا بالفعل، نظر إليّ مبتسماً (عرفت لاحقاً أنه لا يكف عن الابتسام الحقيقي مهما حدث)، ولم يردّ بأي كلمة، وعاد للانهماك في كتابة أشياء في جدول في كراسة أمامه.

استدرنا وتقدمنا خطوات. ولا أدري كيف أستطيع وصف تلك الجنة.. المكان بدائي جداً.. رأيت الغرف أو الشاليهات المقرر أن نستأجر أحدها للمبيت، هي في الحقيقة عشش من الخوص بنيت بأشكال في منتهى البساطة والجمال.. يطلقون عليها ”خَوْش“ والمفرد ”خوشة“.. تتناثر تلك الخوش على الشاطئ دون أدنى شبهة في أن من وزّعهم هكذا قصد أي نظام، ودون -في الوقت نفسه- أي اتهام بتوزيعها بعشوائية.. هل رأيت أسراب الطيور في السماء؟ نفس الفكرة هنا. الجبل نفسه يقبع عليه عدد آخر من تلك الخوش، ما أعطى انطباعاً عامّاً بأن سكان

هذه المنطقة هم قبيلة في عصر حجري قديم.. وأمام المطبخ الذي تركناه للتو كانت تلك المساحة المخصصة للأنشطة العامة التي يمكن تلخيصها -أو ذكر أهمها- في الأكل والشرب والمخدرات -جهازًا.. ليلاً أو نهارًا- وتبادل الأحاديث القصيرة ولعب الموسيقى والتأمل في الكون من حولك وفي المكنون بداخلك.. كانت تتكون تلك المساحة من مظلات على جانبيها، سيقان تلك المظلات جذوع نخل وأسقفها جريد، وأرضيتها سجاجيد بدوية تلك المسماة "كليم".. تم تقسيم تلك المظلات إلى مجموعات.. كل مجموعة بها أرائك ووسائد للاتكاء وطبليّة تتوسطه.. سحر البساطة.

يوجد في مكان ليس بقريب مبنى بدائي عرفنا أنه حمامات المكان مجتمعة، حيث لا توجد في الخوش حمامات ولا كهرباء.. وكان هذا تفسير الموبايلات المتراسة عند مصدر الكهرباء الوحيد في المكان.. حمدت الله أن تلك الحمامات تبدو بدائية لكنها من الداخل إفرنجية وليست بلدي، بالإضافة إلى نظافتها الشديدة.. كان هذا البند وحده كفيلاً بتدمير كل المميزات السابقة.

إن كنت تعتقد أن أي بحر مثله مثل غيره.. فدعني أؤكد لك أن هذا البحر ليس كأبي بحر.. بالضبط في منتصف الشاطئ امتدت الأرض فيما يشبه اللسان بداخل البحر لمسافة معقولة، لتقسمه إلى قسمين، وتنتهي بكتلة صخرية ضخمة يمكن أن تعتبرها تبة صغيرة صارخة النتوءات والتضاريس.. تبدو وكأنها

على هذا الشكل صامدة دون تغيير منذ خلق الأرض.. والبحر من يمينها ومن يسارها له لوان، أخضر فيروزي من أوله لامتداد متوسط المدى، يتحول بعدها اللون فجأة إلى الأزرق القاتم الصريح.

كل هذا جميل.. حتى رواد المكان المستلقين على الشاطئ أو تحت المظلات بعضهم يلعب موسيقى وبعضهم صامت وبعضهم يلعب طاولة، لم يبدُ على أي منهم أي انتباه أو التفات نحونا.. الموسيقى المنبعثة في الجو ساحرة.. شرقية ورتيبة، ولعل رتابتها هي سر سحرها، حيث ذلك الشعور بأنك تمتلك الوقت كله لا يمتلكك هو.. تتحول ساعة اليد في مثل هذه الأجواء إلى مجرد دائرة بداخلها خيطان أحدهما أقصر من الآخر، لا أكثر ولا أقل.. الرائع أيضًا في الموسيقى المحيطة بالمكان أنها بآلات ليست تكنولوجية ولا حديثة إطلاقًا، كالناي والطبلة والعود.. وبعض النقر بملعقة معدنية على كوب زجاجي من وقت لآخر لا يضير أحدًا.. الموسيقى الحية التي تُلعب وتُخلق أمامك لا تقارن بأي حال بتلك المجهزة المسجلة، حتى إن أخطأ العزف أو نشز في بعض الأحيان.

اكتفينا بالتجول بأعيننا في المكان، وكنا في غاية الإنهاك فعلاً.. اتجهنا لنحتل مكاناً تحت إحدى المظلات القليلة الخاوية، ولبسنا الزي الرسمي للمكان، أي خلعنا التيشيرتات وصرنا عاريي الجذع حافيين الأقدام -ظللنا هكذا طوال أيام الإقامة بالمناسبة- واستلقينا أرضاً بعد الرحلة المرهقة، فشقت أذني جملة أتت

من أحد الجالسين تحت المظلة المجاورة:

- آبي غثيف شاحور.

”أبناء العم؟!“.

يقف "حازم" على بُعد أمتار من "شارون" .. وفي تلك اللحظات ينجح أخيراً "قائظ" ويرمي لعنته على روح "حازم" ويتقافز وهو يصرخ فرحاً وإثارة.. جنود "قائظ" لا يعلمون شيئاً لكنهم ينخرطون بالمثل في صراخ محموم بأصوات كأصوات القُرود في الغابات، تلك هي طريقتهم في الاحتفال.

و"الأنور" يراقب، وقد بدأ قلقه يتضخم، وهو يلتفت هنا وهناك منتظراً ظهور "واعظ" ليفعل أي شيء.

"حازم" الذي كان مكتفياً بدور المتفرج عديم التأثير، يشعر بها.. يشعر بالدم المادي يجري في شرايينه لأول مرة في ذلك الكابوس.. يشعر بجوع وإثارة.. يشعر بوزنه وثقل ملابسه.. يشعر ببرودة الجو على وجهه.. يسمع "شارون" والمرافقين بنقاء أوضح، كأن أحدهم نزع سدادة الأذن من عليه.. لا يصدّق.. يرفع كفيه أمام وجهه، فيطيعانه.. يحرك أصابعه فتستجيب.. يدير رأسه يمينا ويساراً، فيرى يمينه ويساره.. يشعر بأنفاسه تتلاحق وبقلبه يلاكم قفصه الصدري.. يبعد كفيه من أمام وجهه ليرى "شارون" منهمكاً مع "موردخاي" في مناقشة

وقراءة خريطة.

لا يعلم كم من الوقت بالضبط أمامه، لكن لا مجال للتفكير والحسابات.. يوّد كثيرًا لو كان معه قنابل، لكن ما معه كان سلاحًا آليًا، لن يغامر باستخدامه بجهل فلا يعمل وينكشف ويُصَفَى، وخنجر أصيل يقبع في حزامه.

يتلفت من جديد بحذر، فيرى الجنود من حوله في حالة تأهب، لكن لا أعين عليه.. يمسك مقبض خنجره البارد، ويخرجه ببطء شديد، ثم يخفيه بمهارة داخل كُمّه دون أن يترك المقبض.. ينظر إلى "شارون" ويحسب المسافة ويرتب الهجمة.

مجرد أن يستدير "شارون"، سيأخذ "حازم" وثبتين في اتجاهه والثالثة سيلتصق فيها بظهره قبل أن يستدير معه بجسدهما ليواجه جسد "شارون" أي رصاصات قد تصدر من هؤلاء الجنود، ثم يضع الخنجر في مكانه المنتظر، داخل رقبة "شارون"، عقابًا على كل ما فعله.. أو بالأحرى، ما سيفعله.. ولا يهم أي شيء سيحدث لـ "حازم" بعدها.. التضحية رابحة تمامًا.

يبتعد "موردخاي" مسرعًا ليتحقق من أشياء في مؤخرة الجيش.. و"شارون" منهمك في ترتيب خرائطه وهو يمشي بهدوء مقتربًا، قبل أن يتوقف ويرفع عينيه فجأة عن الخرائط، لينظر مباشرة في عيني "حازم" بثبات، ويحاول "حازم" أن يتحاشى التقاء نظراتهما.. يشعر "حازم" بشعر رأسه يتحرك وبجسده يتجمد، لديه ضربة واحدة فقط وسينتهي بعدها تمامًا.. يتحرك

”شارون“ نفسه من جديد ببطء نحو ”حازم“ وثمة تشكك كبير يبدو في عينيه.. يقف الآن أمام ”حازم“ تمامًا، ويمدّ يده على عنق ”حازم“ ليخرج دلّاية سلسلة بيانات الجنود من قميصه، ويقرأ ما فيها.

”الآن.. هيا“.

ينطق ”حازم“ في سرّه ”أشهد ألا إله إلا الله“ ويحرر الخنجر من كمّ قميصه.

”و أشهد أن محمدًا..“ ويحكم قبضته على الخنجر بعد استعداله.

ويرفع يده لأقصى مدى.. ويهوي بخنجره على جانب رقبة ”شارون“.. ويدويّ صوته في السماء ”رسول الله“.

obeikandi.com

آني غئيف شاحور!

تستطيع تمييز اللغة العبرية من وسط ألف لغة بمجرد سماعك لكلمات قليلة منها. نزلت على آذاننا تلك الجملة العبرية كالصاروخ.. أجفلنا جميعًا ونظرنا إلى المتحدث، الذي لمح رد فعلنا ولم يتجاوب معه مطلقًا، بل استمر هو ورفاقه في حديثهم بتلك اللغة المقبضة حقًا للقلب. تلفتنا لنعيد النظر والسمع في أرجاء المكان، لنجد أن هذا الشاب ما هو إلا قطرة، انهمر غيث الإسرائيليين من ورائها بعد أن اكتشفنا حين أمعنا النظر أن كل الموجودين في المكان -باستثناء المصريين العاملين- إسرائيليون.

الشباب والبنات والذندنة والحوارات والجو العام، عبري تمامًا.. تشعر أنك تستمع للغة عربية معكوسة من أناس يشبهونك شكلاً إلى حد ما.. لكن ما في قلبك وقلوبهم معروف.. معروف ومكشوف.

دخلنا أنا و"أكرم" و"عمر" في نقاش ساخن حول الخطوة المقبلة.. "أكرم" أخذته الجلالة وارتدى ملابسه -التيشيرت

للدقة- وأخذ يصيح فينا بغضب وتوتر:

- يلا من هنا.. يلا!

”عمر“ أصابه الوجوم، وإن كان أكثر عقلانية، وشدد على استحالة القيام بأي تحرك أو إلغاء للرحلة بسبب حالتنا الجسدية المنهكة بعد تلك الرحلة المكوكية، خصوصًا أن المكان نفسه راق له -ولنا بصراحة- كثيرًا، وتدرجيًا تحدّث بنوع من الأريحية عن عدم وجود أي مشكلة لديه في مجاورة هؤلاء.

لا أنكر الانقباض الذي أصابني، لكنني دافعت عن فكرة أن ”الأرض دي أرضي“ و”همّ اللي يغوروا مش إحنا“ وكلام حنجوري من هذا القبيل.. واتفقنا بصعوبة على الاستمرار، وتجنّب أي احتكاكات بهم.. لا لكثرتهم، ولكن لهمجية الأمر وعدم وجود أي جدوى محتملة من أي مشادة أو معركة.. لنكن عقلايين ”وخلص“.

ذهبت للكاونتر -بعد أن طار النوم من جفوننا- لأطلب طعامًا لنا، فتصادف وجود أحد أبناء العم هؤلاء يتحدث مع موظف الاستقبال الذي لا يكف عن الابتسام أبدًا، كانا يتحدثان العبرية بطلاقة ومرح، ثم جاءت لحظة دفع النقود، فانتبهت بشدة ولمحت العملة التي يتداولونها معًا. هناك فيما بعد مرسى مطروح يمكنك بسهولة أن ترى الدينار الليبي وقد تتداول به أيضًا بشكل محدود.. لم أتخيّل أن أرى بعيني فكرة مشابهة قد تحدث ها هنا.

فرايت الجنيه المصري.. ظهر متألّقاً على غير عادته أمام عينيّ.

ضعيف القيمة عظيم الدلالة.. برّد ناري إلى حد كبير، ونقلت الخبر لصديقيّ حين عدت إليهما بصينية الطعام.. العملة المتداولة في أي مكان في العالم هي علامة هوية أكيدة.. يكفيني، حاليًا ونسبيًا، نوعًا ما أن هؤلاء الزوار قاموا بتغيير ما معهم من نقود إلى العملة المصرية، ليشتروا بضائع مصرية على أرض مصرية.. عظيم، إلى حد ما.

وضعت صينية الطعام على الطاولة، وسَمَّينا بسم الله، إلا "أكرم"، قام بتلاوة التسمية بصوت عالٍ جدًا لدرجة أنني أعتقد أن أهله في القاهرة سمعوها بوضوح. تصرف طفولي بحت، لم يأت لنا إلا بنظرات زجاجية من الجميع دونما أي رد فعل، قبل أن يعودوا هم ببساطة لما هم فيه.. فبدوا كالعقلاء المتزنين ونحن كالأطفال المتعصبين. جعلتني فعلته الساذجة هذه "في نص هدومي".. في نص "بتتاكوري" أقصد.

انقضضنا على الطعام المكوّن من فول بزيت الزيتون وطعمية وبيض أوملت وبطاطس محمرة وباذنجان مقلي وسلطة طحينية، وخبز تم الانتهاء من خَبْزه من دقائق قليلة.. لقمّة وراء لقمّة.. والموسيقى الحية تنبعث بهدوء في آذاننا.. مع صوت موجة بحر وراء موجة تصطدم بهدوء بالشاطئ.. وبعد انتهائنا من مائدة الطعام العظيمة، تلقائيًا أتنا أحد العاملين

حاملًا براد شاي بالممرية، أعطاه بأكمله لنا -وهو العرف- مع
ثلاث أكواب وزجاجة مياه باردة.

أصبحنا في حالة رضا كامل عن النفس والزمان والمكان.

فردت جسمي.. وفي ظرف ثانيتين استسلمت لتلك الهجمة
من المتعة المكثفة بالنوم العميق.

لا يتذكر "حازم" تفاصيل ما حدث بوضوح.. آخر ما يذكره هو اندفاع يده الممسكة بخنجر نحو رقبة "شارون" الذي يتفحص بيانات "حازم" من سلسلته، بينما الجزء الأخير من شهادة "حازم" خفت صوتها سريعًا بعد أن ملأت السماء، قبل أن يختفي كل هذا ليجد "حازم" نفسه دون إرادة من جديد، في داخل نفسه ذاتها، في يوم ما من المستقبل القريب.. وقد صار رجلاً يافعًا ويبدو أنه ذو أهمية كبيرة جدًا.

إنه العام ٢٠٣٤.. تحديدًا في شهر مارس.

المكان.. مدينة المؤتمرات الدولية، في الكيلو ٦٠ طريق سيوة -
الوادي الجديد.

الحدث.. المؤتمر السنوي للدول السبعة الكبرى:

الولايات المتحدة - الاتحاد السوفيتي - ألمانيا - مصر - الصين
- اليابان - بريطانيا.

كان "حازم عبد الحق" المستشار الاقتصادي للرئيس المصري يلقي الكلمة الختامية في المؤتمر الصحفي الذي عُقد بعد جولة اجتماعات تخص الشأن الاقتصادي للدول الكبرى السبعة.

- ... وأهم ما يود العالم سماعه بهذا الشأن.. أن الدول السبع قد وافقت بالإجماع على المشروع الذي طرحه جانبنا المصري، والذي سيكون نقطة تحول جذرية وشاملة في تاريخ الإنسانية جمعاء.

ترتسم ابتسامة رضا على وجه نظيره الألماني، ويهزّ الأمريكي رأسه في حماس، بينما تزداد ملامح الياباني جدية على جدتها.

- لقد حققت الدول السبع الكبرى جميعًا فائض ميزانية تاريخي وغير مسبوق في خمس سنوات متتالية سابقة، ولم يعد لدى هذه الدول ما تضيفه لشعوبها وبلادها بعد الوصول إلى اكتفاء ورخاء غطى ١٠٠% من شعوبهم، مدعومًا ومغطّى بالنظام الاقتصادي الشمولي الرأسمالي "سينا" الذي أسس قواعده خبيرنا المصري "د/ زين الدين فرحان" وسرنا عليه بحذافيره منذ عشر سنوات كما تعلمون.

هنا يترك الصحفيون والمراسلون ما بأيديهم على كراسيهم ويقفوا جميعًا ملتفتين بأجسادهم صوب "د/ زين الدين" الذي يقف بدوره ليرد تحيتهم، مع انحناء خفيفة وابتسامة عذبة،

ويستمر تصفيق الجميع بما فيهم المستشارين الاقتصاديين السبع لدقيقتين متواصلتين.

وبعد أن عاد الجميع لما كانوا عليه، يستطرد "حازم":

- كما يعلم الجميع فإن هذا النظام "سينا" كان كالمقامرة.. فهو لا يمكن تطبيقه إلا على نظام اقتصادي مستقر وقوي، خصوصًا أنه يُحدث تأرجحًا مشوبًا بخطر الانهيار الكامل، إذا لم يتم الانتباه والتعامل السريع مع المخاطر الستة التي ذكرها الدكتور في مشروعه العملاق، وإذا مرّت ثلاث سنوات الترسخية -حسب تسمية الدكتور- فستكون شجرة الرخاء ضربت جذورها في أعماق أرض، ويصبح فرعها في السماء، وتؤتي ثمارًا مضاعفة مضاعفات كثيرة.

يشرب بعدها "حازم" رشفتي ماء ثم يجفف شفتيه بمنديل، ويلتفت إلى نظيره الأمريكي مبتسمًا، ويستطرد:

- كان تنفيذ الدول السبع مجتمعة لذلك النظام مشوبًا بالخطر كما تعلمون، وقمنا بعمل خطط بديلة حال تعثر أي دولة، لإنقاذها قبل أن تدخل فيما سماه الدكتور "زين الدين" مرحلة "الترنج".. شريطة ألا تعثر ثلاث دول معًا في نفس الوقت.. كان هذا هو الخطر الأكبر.. لذلك عندما دخلت الولايات المتحدة وبريطانيا معًا في مرحلة "الدوامة" السابقة للمرحلة الأخيرة "الترنج" قبل حدوث الانهيار الكامل، تذكرون حضراتكم ما حدث، وكيف تولّت مصر واليابان وأمريكا، وتولّى

الاتحاد السوفيتي والصين وألمانيا بريطانيا.. لن أستطرد أكثر من هذا، فأنتم تعلمون، لكن وجب التذكير بتلك المرحلة الخطيرة جدًا على العالم بأسره، لنذكر كمّ الإنجاز المتحقق، والتمسك به، والمضيّ قُدّمًا فيما هو أكبر وأعمّ لصالح الإنسانية جمعاء.

تصفيق حاد من الحضور، وابتسامة مفتعلة على وجه الأمريكي، وبرود إنجليزي على وجه البريطاني.
يستمرّ ”حازم“:

- قادنا نظام ”سينا“ إلى تحقيق الاكتفاء الكامل، كما قلت في بداية حديثي، وحن ميعاد إطعام كل جائع يتنفس على وجه هذه الأرض.. حان ميعاد إيجاد مأوى مناسب للمشردين جميعًا.. لن تكون هناك أمراض.. ولا سرقات.. ولا حوادث قتل.. ولا اغتصاب.. نحن في الطريق لتغيير اسم ذلك الكوكب.. من الأرض.. إلى يوتوبيا.

لا يصفق الحضور فحسب، بل يصفق العالم بأسره الذي كان متابعًا لذلك المؤتمر الذي أعلن أنه سيدي بتفاصيل المرحلة القادمة وشكل الحياة الجديد، والذي سيمس الحياة الشخصية المباشرة لكل البشر، دون استثناء.

يترك ”حازم“ المايك ويستلمه ممثل اليابان، ليشرح خطط وآليات المرحلة القادمة، إلى أن ينتهي المؤتمر.

للمرة الثانية، يشعر ”حازم“ أنه مسلوب الإرادة، وإن كان

راضياً سعيداً تلك المرة.. لديه شعور أن له دخلاً بشكل مباشر في حدوث كل هذا.. هو داخل نفسه يراقب ما تقوله وتفعله نفسه (أو جسده) الخارجية، دون أدنى قدرة على التدخل والتغيير.. مجرد متفرج من الداخل.. ماذا لو ارتدت إليه الإرادة كما حدث أمام ”شارون“، ماذا عساه أن يفعل تلك المرة؟ ينتحر مثلاً؟ ولماذا يفعل هذا؟ يبدو أن كل شيء على ما يرام.. بل أروع مما ينبغي.

في السيارة التي نقلته إلى وزارة المالية، يمدّ السائق يده للخلف مناوئاً ”حازم“ جهازاً لوحياً صغيراً، متوسط السُمك، و”حازم“ لا يعرف ما هذا، لكن ليشاهد نفسه ماذا سيفعل.

يمسك ”حازم عبد الحق“ بذلك الجهاز الصغير، ويفرده مرة وراء أخرى ليتضح أنه تابلت ضخمة في حجم صفحة جريدة، ويحتوي على إمكانية الطي. وبلمستين تضيء الشاشة، ويأخذ ”حازم“ يسحب عليها جريدة تلو أخرى يقلّب في أخبارها الرئيسية، لتقع عيناه على بعض الأخبار التي كان بعض منها يقول:

”مصر تتعادل مع البرتغال بهدف لكل منهما، في المباراة التي أقيمت في لشبونة ضمن استعدادات مصر لرحلة كأس العالم التي ستقام بعد ثلاثة أشهر في المغرب، والتي يحمل لقبها من النسخة الماضية المنتخب المصري للمرة الثانية في تاريخه، والذي سيسعى لخوض حرب ضروس في يونيو للفوز بالكأس

للمرة الثالثة والاحتفاظ بها مدى الحياة“.

”عدد السائحين في مصر يتضاعف عن العام السابق ويبلغ أقصى معدل في تاريخها بثلاثين مليون سائح سنوياً“.

”فريق العلماء المصري يصل بأبحاثه إلى نسبة نجاح ٩٥% لعلاج السرطان، العاكفين عليه منذ عشر سنوات، وينشرون الأبحاث والتركيبية العلاجية على الإنترنت لتصنيع العلاج عالمياً بكثافة“.

كان ”حازم“ -من الداخل- ممتزج المشاعر بشدة.. بين سعادة غامرة، وفخر يملؤه ويفيض، وذهول كامل مما رأى وطنه عليه.. يفكر أن يتحدث مع السائق، لكنه كان بعد كالمتفرج فحسب.. لا إرادة لديه.

يطوى ”حازم“ -المنتمي إلى هذا الزمن- التابلت عدة مرات ليصير في حجم الكف، قبل أن يضعه في جيبه.

تسير السيارة كثيراً وسط شوارع منظمة هادئة، على جانبيها عمران راقي البناءات ليس بكثيفها، وكانت الغلبة للمسطحات الخضراء المنسقة بعناية فائقة.

لو كان لـ”حازم“ أن يبكي لبكى فرحاً، شاعراً أنه كان السبب بشكل ما في كل هذا الذي يفوق أقصى أحلامه لوطنه بمراحل كثيرة. يهتزّ التابلت في جيبه، فيخرجه ويفرده من جديد ”حازم عبد الحق“، ليعلن الهاتف عن اتصال من Salma Sweetheart.

استيقظت بعد نحو ساعة.. أو ساعتين.. لم أهتم.

أول مرة في حياتي أنام في مكان عام وسط ناس لا أعرفهم، ناهيك بجنسيتهم. لكن لتوصيل الصورة -أو كمحاولة- فإن ثمة روحانيات أو شعور عام في ذلك المكان يتسلل بنعومة داخل ثنايا خلاياك ويلتصق بجزئياتها وتؤول لها السيطرة على كيائك، برضا كامل منك تستسلم وترتد إلى حالة الإنسان الأول الخالي من ضغوط الحياة، الذي لا يفكر إلا في الأكل والشرب والنوم وأشياء قليلة أخرى.

كان "أكرم" ما يزال نائمًا. تقلّبت لأجد شيئًا غريبًا أثار خوفي ودهشتي معًا. كان بجوارني تمامًا رجل يجلس القرفصاء في وضع كأنه يشاهدني مليًا، ويبدو عليه أنه على هذه الحال منذ كثير من الوقت.. اعتدلت مندهشًا بشدة وصرت جالسًا في مقابلته، ولم يحرك ساكنًا!

فقط عيني في عينيه ولم يبدأ أحدنا الحديث. لم يبدُ أنه منهم (جيراننا)، وكان شعره طويلًا أشعث يصل إلى كتفه، أبيض -شعره لا كتفه- بياضًا لا تشوبه شائبة، ذقن بيضاء قصيرة،

كأنها إبر متناهية القصر تم غرسها في وجهه.. وكانت ملابسه رثة بالية، بنظون أبيض قصير وتشيرت أبيض ضخم يفوقه بثلاثة مقاسات على الأقل، متهدل لكنه غير ممزق.

لم يكن "عمر" موجودًا حولنا، و"أكرم" يبدو أن نومه سيطول.. اختلست النظر للعاملين في المكان فلم أجدهم.. فقط أبناء العم في استرخاء تام، وهذا الرجل المليء بالألوان البيضاء يحملق فيّ.

رفعت يدي بصمت محيياً إياه بابتسامة، رغم أنه على بعد نصف متر فقط.. فرفع يده بألية ليرد نفس التحية دون ابتسامة. قلت له:

- أهلاً وسهلاً.

فأشاح بوجهه في كبرياء عظيم!

نظرت حولي وحانت مني التفاتة على قمة الجبل الذي يحدّ الكامب من جهة اليمين، لأجد "عمر" في وضعية من أغرب ما يكون. كان واقفاً وراء فتاتين متجاورتين تقومان معاً بتحركات جسدية متلوية فيما يشبه الرقص البطيء جداً.. وكان "عمر" الذي لا أستغرب قيامه بأي شيء غريب، يقوم بتقليدهما في كل حركاتهما الراقصة، إن جاز تسمية ذلك رقصاً.

امتدت يدي إلى علبة سجائري، وعزمت على الرجل ذي الملابس البيضاء، فأخذ سيجارة بالفعل وقضينا دقائق ندخن في

رصين. رُقّ قلبي لحاله وطيبته جدًّا. طلبت أن أدعوه إلى شاي أو طعام لكنه رفض، وطلب شيئًا آخر. طلب مني أن أزور المكان مرة أخرى ومعني كيس نوم لأعطيّه له ليقيه البرد ويساعده على كثرة الترحال.

- والله هجيبهولك.

قلتها متأثرًا بحق، وشعرت بعاطفة كبيرة نحوه، ونوع من الالتزام كذلك كأنني مسؤول عنه بشكل ما.

استيقظ "أكرم" ليجدني في حوار محموم بالإشارة مع هذا الرجل، تلفت حوله، ثم سألني:

- فين "عمر"؟

فأشرت بيدي نحو قمة الجبل، وعدت لحواري المحموم الصامت مع الأبكم.. وتركته مع نفسه ليستوعب أنه استيقظ وسط إسرائيليين كثيرين، وقد وجدني أتحدث بلغة الإشارة مع أبكم لا نعرفه، و"عمر" يرقص ببطء فوق الجبل مع فتاتين!

أخيرًا جاءنا موظف الاستقبال الذي لا يكف عن الابتسام، ومعه شاب ودود ضئيل الحجم، وطلب منا أن نتبعه ليسلمنا الخوشة خاصتنا. استأذنت الأبكم فأشاح لي بيده (علامة عُور).. وذهبنا رفقة الشاب الضئيل إلى منطقة المبيت. الخوشة من الداخل بسيطة تمامًا، مجردة من أي شيء إلا بعض الكليم وثلاث مراتب، ووسادات قذرة، يستحيل أن أنام عليها.. سأضع

التيشيرت ككييس وسادة ثم أحرقه لاحقًا بعد انتهاء كل هذا..
وأمام الخوشة مساحة مظلمة بخوص ممتد من سقف الخوشة
نفسها، وكراسيها عبارة عن دكة حجرية طويلة تصلح للجلوس
أو الاتكاء.

سألت ذلك الشاب:

- اسمك إيه؟

- سوسو.

- ... (صُدمت).

- بس ده اسم الدلع.

- ... (اشتدت صدمتي).

- اسمي الحقيقي إدريس

- ...!

- ودي سيجارة حشيش لبناني هدية استقبال لكم.

- حبيب قلبي يا سوسو يا شهم يا كريم يا جدع.

كان حشيشًا غريبًا، في درجة لونه الفاتحة جدًا، وقوامه
الطري إلى حد كبير، ورائحته الخفيفة.. شكرنا "سوسو" عمومًا،
واتفقنا أنه سيكون مورّدنا بالمؤن في الأيام القادمة، كبيزنس
لا هدايا. أشعلنا سيجارة معًا وجلسنا نتبادل حوارًا سريعًا،

وسألت ”سوسو“ عن سبب تسمية هذا المكان بذلك الاسم ”راس شيطان“، فأجابني إجابة محبطة للغاية، فقد قال إن ”ولاد العبيطة“ لا يعرفون أن تلك الرأس، وأشار إلى تلك التبة الصغيرة صارخة النتوءات والتضاريس، الممتدة من الشاطئ لتخترق البحر لأمتار، تقسم هذا الشاطئ إلى شاطئين.. فسَمَّوها قديمًا ”راس شطّين“، وتحوّر الاسم مع الزمن ویتسخ ليصبح ”راس شيطان“.. لدرجة أنه صارت له ترجمة شبه حرفية بمسمى Ras satan.

وجاءنا ”عمر“ بعد وصلة الرقص البطيء الجبلية تلك، وشرح لنا أن هذا لم يك رقصًا، بل طقوس يوجا وزن، وقد وافقتا الفتاتين على تعليمه في كذا جلسة.

المكان مبهر بحق.

سألنا على أسعار كل شيء، وقمنا بحساب ما معنا من نقود، وخططنا ميزانية يومية بها بعض التقشف لضمان البقاء أكبر عدد من الأيام.. كان الحديث عن الشغل وخطة كل واحد منا في الحصول، من هنا، على إجازة إضافية لما بعد أيام العيد وصعوبة ذلك، كان هذا الحديث في ذلك الموضوع في هذا المكان الطاهر أشبه بمن يأتيك أثناء التهامك بنهم لوجبة شهية عظيمة، ويدّرك بوالدك الراحل ويسألك عن مدى افتقارك له.

قضينا يومين في استرخاء بدني وروحاني لا تصفه كلمات..

امتلكنا المكان تمامًا.. ومررنا بالعديد من المواقف الغريبة،
فمثلًا في غدائنا في اليوم الثاني كنا نأكل دجاجًا مشويًا، وإذا
بثلاثة كلاب بلدي تأتي لا أعلم من أين، وتستقر بجوارنا تمامًا
مولية إيانا ظهورها. تلك هي أقرب مسافة سمحت فيها لأي
كلب في حياتي ببلوغها. اللطيف أن الكلاب لم تنظر نحونا أبدًا
طوال تناولنا الطعام، وبمجرد انتهائنا وقفت الكلاب ونظرت
إلينا طالبة العظام.. كلاب بلدي لكن مهذبة للغاية. أخذت
أنا و"أكرم" في تقطيع بواقي الدجاج وإطعامها لتلك الكلاب
اللطيفة، وأخذنا نتحدث وصار إطعامنا لها أوتوماتيكيًا، إلى أن
لاحظت أن يدي الممدودة بقطعة من الجلد لا تزال معلقة
دون أن يأكلها الكلب.. فأجفلت كوني تنبهت أن القطعة صغيرة
للعاية وسيقضم الكلب يدي مع قطعة الجلد لا محالة.. نظرت
إليه لأجده في حالة كفاح ومعاناة كاملتين يحاول أن يلتقط
القطعة الصغيرة دون أن يلمس يدي نفسها. لقد عشقت هذا
المكان وأحببت كل تفاصيله.

لا تسألني عن "عمر" من فضلك، فأنت تعرف أنه فوق
الجبيل يفعل أو يرقص يوجا.

وكان الشيء الأكثر تميّزًا على الإطلاق في اليوم الثالث.. هو
تعارفنا بـ"ميزو" و"الحيزبونة".

obeikandi.com

تنزل تلك الجُمل التي قالتها ”سلمى“ لـ”حازم“ على رأسه كالحجر الثقيل.. تتكهرب كل ذرة وتشتعل كل خلية في جسده، يتبدد تمامًا الفخر الذي كان يملؤه منذ قليل، ولا يدري من أين يمسك طرف خيط الاستجواب.. لا يدري أي شيء، فيسأل أول سؤال يخطر بباله، بحلق جاف وصوت مبحوح:

- طب والدين يا ”سلمى“!؟

- يووه يا بابي بقى.. وإنت مال... قصدي إحنا مالنا ومال دينه.. هو وعدني إن ابننا هيكون حر وخلص يختار اللي هو عايزه.

لم تزعجه تلك الكوارث التي يسمعاها أو مصير ابنته فحسب، بل أثار رعبه تلك الأريحية التي تتحدث بها، ما يوحي بأن هناك تغييرًا مجتمعيًا وفكريًا وجغرافيًا صارخًا للغاية، وشديد التطرف في اتجاه شيطاني تمامًا.. فيتمالك نفسه ويقول:

- طيب.. سيبينا من الموضوع ده دلوقتي.. قول...

- لاااا يا بابااا لااااا باركلي الأول.

- طب مبروك يا حبيبتى.. بقولك يا ”سلمى“.. معايا ابن واحد زميلي بيعمل بحث.. وسألني كام سؤال كده.. عايز أشوف رأيك فيهم.

- نعم؟ بحث؟ تسألني أنا؟ وأنا مالي أصلاً؟

يقول ”حازم“ بصوت يجاهد ألا يخرج مرتجفاً، وسيارته تجوب تلك الشوارع النظيفة وسط البنايات المنمّقة والأشخاص الذين يبدو عليهم التحضّر والرقي:

- معلىش يا حبيبتى الموضوع ضروري.

- ولا فيه بحث ولا حاجة يا بابي متضحكش عليّ.. وعمومًا ريّح نفسك.. هسقط في اختبار المعلومات زي كل مرة.. نرجع لموضوعنا بقى.

- ”سلمى“.. خليكي معايا وجاوبي اللي هسألك عليه ضروري.. ومكافئتك إني هعزم الكل.. هعزم ”شيمون“ ع الغدا عشان نحتفل كلنا بالأخبار الجميلة دي.

تصرخ ”سلمى“ فرحًا ويكاد أن يصرخ ”حازم“ كمدًا، ويتمالك نفسه ويقول:

- وهجيب خمرة كمان في الحفلة.

- بابي.. إنت عارف إني مبشربش.. متسألنيش تاني لو سمحت السؤال ده.

- لأطمئنتيني يا بنتي! طيب.. إنتي عارفة أنا راجع من إيه دلوقتي؟

- طبعًا يا بابي.. شرفتنا.. ده الدنيا كلها بتتكلم.

- عظيم.. قوليلي يا حبيبتني، مصر بقالها أد إيه كده؟ يعني إحنا من إمتى كده؟!

- من إمتى إيه مش فاهمة؟!

- يعني.. أغنيا.. وبنفكر.. وعندنا علم.. وبنحسّن العالم.. متقدمين يعني يا "سلمى"!

- إيه السؤال الغريب ده؟! معرفش.. من ساعة ما اتولدت يمكن.

- طيب بلاش.. ليه المؤتمر ده كان في الصحرا؟ قصدي قرب سيوة؟

- أومال هيتعمل فين يعني؟

- قصدك إيه يا "سلمى"؟

- بابي أنا مش مثقفة أيوه بس مش للدرجة دي يعني.. مؤتمر بالحجم ده لازم يتعمل في العاصمة طبعًا.

- سيوة عاصمة مصر؟!

- إيه الفصان ده يا بابي؟ للدرجة دي فاكرني ميح؟!

- "سلمى" يا حبيبتي.. عشان خاطري.. متاخدش أسئلتي ع
الناحية دي.. ردي عليّ وخلص وهشرك كل حاجة في الآخر.

- حاضر.. لاء.. عاصمة مصر مش سيوة طبعًا.. سيوة مدينة
جوة العاصمة نفسها اللي اسمها الوادي الجديد.

- طب والقاهرة يا "سلمى".. مش العاصمة ليه؟

- معرفش بصراحة يا بابي.. اللي أعرفه إنها كانت قبل الوادي
الجديد.

- طب مساحة مصر كام؟

- لا دي صعبة أوي.

- رئيس مصر اسمه إيه طيب؟

- المحافظ؟ اسمه إبراهيم شوكت طبعًا.

- الرئيس؟

- المحافظ مش الرئيس.. أنا فاهمة الفرق كويس.

- طب ليه محافظ مش رئيس؟

- أيوه كده أنا بحب الأسئلة السهلة.. مش مساحة مصر كام!

- تمام، ليه محافظ مش رئيس؟

- عشان إحنا من الدول العشرين اللي بيتبعوا للأمم المتحدة

والوصاية الدولية.

- اشرحيلي يا "سلمى" الحجة دي بالتفصيل.. إيه الدول العشرين دول؟

- اللي أعرفه إن زمان كان فيه كام بلد في العالم كانوا عاملين مشاكل كتير مع بلاد كتير.. ولما انهزموا واحدة ورا الثانية اتفقت الأمم المتحدة إنها تبقى وصية عليهم كلهم مباشرة.

- يعني جيشنا بيحمي إيه بالظبط؟

- جيش إيه يا بابي؟! ما إنت عارف إن الدول دي ممنوعة من امتلاك جيوش.

- الله! يعني الأمم المتحدة وصية علينا وقوات حفظ السلام هي اللي بتحمينا من أي اعتداء؟

- لا طبعاً.. جيش شوية دول من أعضاء الأمم المتحدة هو اللي بيحمينا.. وهمّ ليهم قواعد كتير في مصر.. الموضوع متأمن حلو أوي.. وبعدين مصر جوهره العالم أصلاً.. اللي يقربلنا الجيوش دي هتاكله.

"ألن يوقظني أحد بعد؟".

يكاد قلب "حازم" أن ينخلع من صدره مع كل رصاصة تطلقها عليه "سلمى".. فيستمر في أسئلته بأنفاس متقطعة:

- طيب.. اتعرفتي على "شيمون" فين يا "سلمى"؟

- أيوه كده يا بابي هي دي المواضيع.. مش مساحات وعواصم.
مع إنك عارف كويس الإجابة بس الموضوع ده أحلى طبعًا..
ها؟ هنعزمه إمتى؟

- طب فكريني بس الأول.. اتعرفتوا على بعض إزاي؟

- في رحلة السويس اللي طلعتها من سنة.

- وهو كان بيعمل إيه في السويس؟

- إيه اللي بيعمل إيه؟ بيشتغل!

- بيشتغل إيه؟

- ظابط.. بيحرس حدود بلده.

- ...!

- بابي؟

- "سلمى" .. "شيمون" إسرائيلي.. صح؟

- أكيد.. من مواليد سيناء.

يشعر "حازم" ببرودة الثلج تكسوه بالكامل، وفي تلك اللحظات
تصل السيارة التي تقل "حازم" إلى وزارة المالية، ليملاً عينيه
مشهد العلم المصري يرفرف خفًا فوق البوابة الأمنية.. بلونه
الأحمر والأبيض والأسود، والنسر الذي يتوسطه.. وعلامة الأمم
المتحدة في ركنه الأعلى الأيسر!

أستطيع أن أجزم دون تحفظ كبير أن "ميزو" هي سيدة هذا المكان.. نعم، هي امرأة. لمحناها في دخولنا راس شيطان لأول مرة، ثمّة نقاء كبير يفيض ويشعّ منها، وجهها صافٍ كأنها طفلة لا امرأة أربعينية.. نظراتها وتحركاتها وجلساتها وحيدة في مواجهة البحر في صمت.. لديها سَكينة واطمئنان حسدتها عليهما. ملابسها عبارة عن أقمشة ملفوفة عليها.. شعرها الغجري معكوص بعشوائية محببة، وكأنها ترسل منه رسالة أن من "لا يعجبه فليحترق بعيداً عني".. راقبتها خلسة في اليومين السابقين، واستنتجت أنها ذات شأن ما في هذا المكان.. يعرفها أغلب الناس ويلقون عليها تحيات قصيرة تردها بلطف قبل أن تعود للتأمل.

بعد أن تعوّدت المكان وصرت أشعر أنني أحد مالكيه، قررت في ذلك اليوم أن أستكشف هذه المرأة عن قرب. انزعج "أكرم" كثيراً من هذا لكنني أخبرته أنني سأتولّى الموضوع. جاءنا برّاد الشاي فصببت كوبين وذهبت لها في جلستها الصامتة أمام البحر. كنت قادماً من خلفها فاتجهت جانباً قليلاً كي لا أصيها بالفزع، واقتربت ببطء وألقيت عليها صباح الخير بالإنجليزية،

فلم تلتفت إليّ ولم ترفع عينيها عن البحر.. لكنها ردت بإنجليزية ذات لكنة فرنسية:

- اجلس.. بجانبى.

”مُبْهرة!“

جلست وناولتها شايًا وسيجارة، أشعلتها وظلّلت تتأمل البحر كأنني سرابًا ملقى بجانبها. مرّت دقائق كثيرة دون أي كلمة.. نظرت لـ “أكرم” لأجده نائمًا تحت جذع نخلة. طالت دقائق الصمت فنويت أن أقوم عندما أنتهي من الشاي.. فنظرت نحوي أخيرًا وفاجأتني كلماتها الأولى معي:

- حياة العاصمة سيئة.. صحيح؟

”كيف عرفتِ يا مدام؟ هذا بالظبط ما يملأ ذهني!“

وفُتحت ماسورة الكلام.. تحدثت هي أكثر بكثير مما سمعت.. عرفت اسمها، وهو صعب جدًا لم أستطع تكراره من المرة الأولى، فقالت لي إنها مشهورة بنصفه الأول ”ميزو“.. من سويسرا هي.. كانت تعمل مديرة تسويق في كريستيان ديور! إلى أن جاءت هنا مصادفة منذ... منذ... إحم.. أربعة عشر عامًا!

- متّصلة؟

- لا.. رجعت إلى سويسرا بعد عامين من استقرارى هنا.. وبعد شهر واحد هناك تأكدت من صحة اختياري، فعُدت إلى هنا

من جديد.

- ومن أين تأتين بمصاريف المعيشة؟

لم تردّ ونظرت إليّ باحتقار، وعرفت لاحقاً أن صاحب المكان لا يطلب منها نقوداً نظير المبيت في خوخة مستقلة ولا الطعام ولا الشراب.. من باب أن وجودها بركة أم ماذا، الله أعلم! سألتها عن الملل المتوقّع، كيف لم يضربها! فأعطتني محاضرة عن (نسبية الأمور، وعن تصديق الأوهام، وعن الدوران في سواقي، وعن مسيرات القطعان، وعن حتمية الانسياق، وعن إدمان الترهات، وعن بريق الأغلبية، وعن الجري في السباقات الحتمية المحمومة).. كل هذا في مواجهة إطاعة الفطرة!

كانت تتكلم بهدوء وثبات غريبين.. وشعرت أن حديثها يتسلل داخل عقلي بنعومة مع تلك الموسيقى الحية التي لا تتوقف مع أصوات موجات هادئة تأتي متقطعة من البحر.. شعرت أنني في جلسة غسيل مخ، لكن ما غرض "ميزو" إن كان هذا فعلاً ما تفعله، غسيل مخّي.. ولكن من قال إن غسيل المخ شيء سيئ، بالعكس، الغسيل يُنظّف.. والنظافة من الإيمان.. وكل ما تقوله منطقي. وكأنها قرأت أفكارى فاستمرت:

- رسولك عندما جاء بدينك إلى الأرض، اتّبعتة أعداد قليلة جداً.. لو عاد بك الزمن إلى تلك الفترة، هل كنت ستنتمي إليهم.. هؤلاء ذوي الأعداد الشحيحة.. أم ستستمر مع الغالبية الكاسحة من البشر في انتمائهم؟

- "إنتي عايضة إيه يا ست؟!".

قاومت ابتلاع كل ما تقوله "ميزو"، حتى لا تنتهي حياتي وأنا ألبس أقمشة حول جسدي وأعيش متأملاً البحر في انتظار شخص يجيئني بكوب شاي ويقول «صباح الخير».. المكان رائع، نعم.. وكل ما ألمحت عليه من بيع المرء حياته لطاحونة العمل والحياة والأقساط صحيح تماماً.. لكنها الحياة.. لكنها للأمانة حياة مقبولة.. لكنها الحياة عموماً، كما هي مع من تعرفهم وتحبهم.. لكن حياتهم جميعاً ليست ملكهم، نحن جميعنا ملك لسيستم بغيض.. لكنها الحياة.. والله يخرب بيت أم دي فكرة وأم دي كباية شاي وأم دي قعدة سودا.

أخيراً استيقظ "أكرم" من غفلته وانضم إلينا بعد أن حيا "ميزو" بقدر ما استطاع أن يظهره من ود، فصمتت قليلاً قبل أن تقول شيئاً غريباً:

- فيه فن القاهرة توجد شجرة كبيرة.. أتعرفانها؟

- هاه؟!!

أعادت تلك الجملة الغريبة بصبر ثلاث مرات متصاعدة البطء وهي تتكئ على الحروف.. ونحن لا نفهم. فسألها "أكرم" سؤالاً غريباً:

- هل أنتِ فرنسية؟

- لا.. أنا سويسرية من الجزء الناطق بالفرنسية.

فقال "أكرم" بالعربية موجَّهاً كلامه لي:

- قصدها في "قلب القاهرة" مش "فن القاهرة".. اللي بيتكلموا
فرنساوي مبيعرفوش ينطقوا كلمة أولها إتش فيمسخوه.. زي
"أوتيل" كده.. هي قصدها "هارت" مش "آرت".

وكأن هذا قد حلَّ لغز السؤال، وإن كان أضاء شمعة ما.
فأجبتها بالنفي. فقالت إن هذه الشجرة العجوز في منطقة
حديقة الحيوان.. ونصحتنا أن نذهب إليها كلما يشتد بنا جوع
التجرّد من الحضارة، وهي -الشجرة- ستقوم بالواجب. كتم
"أكرم" الضحك بينما لمستني كلماتها فسألتها كيف أعرفها،
خصوصاً أن تلك الحديقة في الجيزة لا القاهرة.. فقالت إنني
سأعرفها بمجرد أن أراها.

"ولماذا أمشي في شوارع الجيزة أتأمل الأشجار وأبحث عن
كبراهم؟ لماذا لا أبقى هنا؟".

تحدّثنا كثيراً وازداد إعجابي بتلك المرأة النقية، وصرت أحسدها
من كل قلبي على استطاعتها التحرر من منظومة سَلْب الحياة
التي تمتلكنا.. إلى أن ظهرت فجأة كالقضاء المستعجل امرأة أخرى،
انضمت إلينا بكثير من الصوت العالي والكلام الكثير والضحك
المفتعل بجنون.. تبدو أنها صديقة لها، وإن بدا تحفّظ كبير
على وجه "ميزو" ومزاجها العام بمجرد انضمام تلك المزعجة
لنا.

كانت تلك المرأة تلبس أسماًلاً كثيرة زاهية الألوان وأقمشة

متدلية من كل مكان وعقود تشبه المسابح تتدلى من عنقها،
وأساور بلاستيكية كثيرة في معصمها.. أسنانها متآكل معظمها..
بشرتها تملؤها التجاعيد.. عيناها جاحظة زرقاء.. شعرها
لا يختلف كثيراً عن سلك المواعين.. يستخدم كثير منا ذلك
المصطلح الكوميدي لوصف الشعر غير الجيد.. لكن هذه
المجذوبة شعرها كان يشبه سلك المواعين حرفياً، في ملمسه
ولونه وتلايفه، أعتقد لو تم إحراقه سيعطي نفس التأثير
وتطاير الشظايا.

تبدد مني كل شعور بالسكينة بمجرد أن جثمت تلك المرأة
علينا دون إنذار.. كانت من الطراز الذي يقترب منك بشدة
أثناء حديثه.. تقول المزحة وتضحك عليها بعنف وهي تصفع
ظهرك. لا عجب أن يظهر الضيق على "ميزو" بمجرد انضمامها
إلينا. في الثواني التي صمتت فيها سألتها وعرفت أنها هنا منذ
عشرين عاماً متصلة.. وعرفت أنها من رومانيا واسمها شيء ما..
لكن "الحيزبونة" هو التسمية الأكثر ملاءمة دون داعٍ للتفكير
في غيره.

وفجأة، شقت طمأنينة المكان صرخة طويلة مدوية.. صرخة
شابة تقف هناك بالأعلى.. على قمة الجبل!

- الله يخرّب بيتك يا "عمر"!

لا نَعْلَمُ الكَثِيرَ عَن "واعظ"، ولا عَن قُدْرَاتِهِ وَأَسَالِيْبِهِ، فَقط نَعْرِفُ أَنَّهُ صُورَةٌ طَبَقَ الأَصْلَ مِن "قائظ"، وَيُنَاقِضُهُ تَمَامًا فِي أي شيء آخَرَ. نَعْلَمُ أَنَّهُ يُكَافِحُ حَقًّا فِي اللِّحَاقِ بِ"قائظ"، وَمَنْعُهُ مِن مُرَادِهِ، وَيَتَرَقَّبُ "الأَنُورَ" ظُهُورَهُ بِشَغْفٍ وَقَلَقٍ. لا نَعْلَمُ ما إذا حَدَثَ لَجُودِهِ، وما إذا أُلْقِيَ عَلَيْهِ مِن لَعَنَاتٍ، نَعْلَمُ فَقط أَنَّهُ جَاهِدَ بِشِدَّةٍ لِلتَّخَلُّصِ مِنْهَا، وَفَقَدَ مَعَهَا الكَثِيرَ مِن قُدْرَاتِهِ. لا نَعْلَمُ يَقِينًا مَتَى وَكَيْفَ اسْتَطَاعَ أَنْ يَرْمِيَ رَمِيَّتَهُ الوَحِيدَةَ المُمَكِّنَةَ عَلى "حازم" -بطلنا الذي لا يَعْرِفُ أَنَّهُ بطلنا، الذي يَظُنُّ نَفْسَهُ فِي حِلْمٍ وما هُوَ بِحِلْمٍ- فِي الثَّانِيَةِ السَّابِقَةِ لَطَعِنَهُ "شارون". لا نَعْلَمُ كَيْفَ فَعَلَهَا، لَكِنَّا نَعْلَمُ أَنَّهُ -فقط- اسْتَطَاعَ أَنْ يَفْتَحَ لـ"حازم" طاقَةً يَرى مِنْهَا مَشْهَدًا مُسْتَقْبَلِيًّا مَتَرْتَّبًا عَلى تلكِ الطَّعْنَةِ التي سَتَنْفِذُ حَالًا فِي عُنُقِ "شارون".

كُلُّ ما رآه "حازم" فِي المَسْتَقْبَلِ مَرَّ أَمَامَ عَيْنِيهِ فِي جِزءٍ خَاطِفٍ مِن الثَّانِيَةِ.. يَشْبهُ الأَمْرَ كَثِيرًا عَندما تَنْظُرُ إِلى زِجاجِ نافِذَةِ سِيارَةِ يَكسُوهُ التُّرابُ، فَتَرى انْعِكَاسَ وَجْهِكَ إِذا شِئْتَ.. أو القَلْبَ الذي رَسَمَهُ عاشِقانَ عَلى التُّرابِ إِذا شِئْتَ.. أو ما بَدَخلَ السِيارَةَ إِذا شِئْتَ، بَينما أَنتَ تَنْظُرُ عَلى نَفْسِ السُّطْحِ.

يحاولُ ”واعظ“ بشدّة أن ينقلَ اليقينَ إلى ”حازم“، أنّ ما رأى منه لَمحة، هو نتيجةٌ فعليّةٌ لتلك الطعنةِ السوداء، لكنّه لم يستطع.

يقف ”حازم“ الآن من جديد في الظلام في سيناء، في الصفوف الأمامية للجيش الإسرائيلي.. و”شارون“ يمدّ يده ويخرج الـ Dog label المحتوية على بيانات الجندي.. يقبض ”حازم“ بقوة على مقبض الخنجر البارد وهو يرتجف ويتصبّب عرقًا وقد زلزلت كيانه تلك الرؤيا التي مرّ بها.. يحاول أن يسيطر على أنفاسه المتسارعة.. يتساءل: هل ذلك الخنجر المخفيّ في كمّه هو ما أدى إلى تلك المصائب التي شاهدها؟ هل هي رؤيا شيطانية غرضها إثناؤه عن تمزيق أوردة ”شارون“؟ هل يطعن ”شارون“ أم يتركه؟ هل تتكرر فرص مثل هذه؟! هل هذا حلم؟!

يرفع ”شارون“ عينيه من سلسلة ”حازم“، وينظر إليه بعينيه الوقحتين، ويقول ببرود:

- أُنحينه ميتسيخيم إلزيه؟!

يندهش ”حازم“ أنه لم يفهم تلك المرة بالذات؟ سمعها بالعبرية كما هي!

إذا نطق سيتحدث العربية بكل تأكيد!

”شارون“ ينتظر الرد.

فيأخذ ”حازم“ قراره النهائي بثقة ويقين.. وبلا رجعة.

obeikandi.com

يقرّر ”حازم“.. لن يفعلها.. حتى لو كان هو نفسه الثمن.
يكرّر ”شارون“ سؤاله بلهجة أعنف، وهو يمك ”حازم“ من
ياقته :

- أنيحينه ميتسيخيم إلزيه كيتسيت؟!!

يغمض ”حازم“ عينيه بشدة، ويرخي قبضته على الخنجر،
ويتلو الشهادتين مرارًا في سرّه.. ليسمع صوتًا معدنيًا يرنّ داخل
أذنيه، قائلاً بلهجة خالية من المشاعر:

- ”كلير“.. خُد ممرّ سبعة.

يفتح عينيه فيخفق قلبه بعنف مما يراه، ويتكرر الصوت
المعدني الجادّ في أذنيه:

- نسر ٣٧.. يُرجى التأكيد.

أمام عينيه يمتد ممر أسفلي طويل يبدو أن لا نهاية له،
بينما هو يجلس بالفعل داخل كابينة طائرة حربية، وأمام
عينيه الكثير من المؤشرات والأزرار والأذرع.. يتحسس رأسه

ليجد أنه يلبس خوذة تنسل من خلالها كلمات ذلك الذي يحدثه داخل أذنيه.. فيردّ بصوت مرتجف:

- عِلْم.

تخرج كلماته بإرادته.. ولا يستطيع تمييز اللغة، هو يفهمها كأفكار، لكن أي لغة بالضبط، ليس متأكدًا. لا يفهم أي شيء عن أنواع الطائرات ولا التسليح الجوي لمصر أو إسرائيل.. لكن الحقيقة واضحة مرأى الشمس، هذه طائرة حربية مقاتلة.. يبحث حوله عن أي علامة تخبره إلى أي الجيشين ينتمي الآن، فيجد أخيرًا على جانب كمّه الإجابة المباشرة.. علم مصر، فيكبّر بحماس، ويعطي أوامره لعصا التحكم والدواستين مع رفع أذرع وضغط أزرار، ويكرر لبرج المراقبة:

- عِلْم.. نسر ٣٧ هعمل تاكسينج.. والكلايم من ممر سبعة.

وتتحرك طائرته ببطء.. ويدها بمهارة، ويقول لبرج المراقبة:

- تاريخ النهارده كام للتأكيد؟

تزيد سرعة الطائرة على الممر.. ويعدّل "حازم" خوذته.. وتتسارع الطائرة بشدة.. ويجذب الذراع، فيترك كوكب الأرض طائرة "حازم" منخفضة وتنطلق هي كالشهاب، وتأتي إجابة سؤاله في أذنيه قبل أن يستمر في الانطلاق إلى مهمته.. ليعرف أنه الآن في أتون أيام مشهودات.. أيام شهد لها القاصي والداني.. يقول له بصرامة الصوت المعدني القادم من برج المراقبة:

- ستاسر أكتوبر ثلاثة وسبعين.. ربنا معاك.

بسببِ الحَدَثِ والزَّمانِ والمَكانِ قَدْ نعتقدُ أَنَّ "واعظ" هو مَنْ فَعَلَهَا.. هُوَ مَنْ رَمَى رَمِيتهِ وأَلْقَى بـ"حازم" في ذلكِ الزمنِ.. لكن دعنا نتذكَّر أَنَّ "قائظ" يسبِقُ "واعظ" بخطواتٍ كثيرة.. جُلَّ ما استطاع "واعظ" فَعَله في الجَوْلَة السابقة أَنْ كَشَفَ لـ"حازم" مُحةً مستقبليَّةً ناتجةً مِنْ فَعَلِتهِ التلقائيَّةِ وطعنته لـ"شارون"، التي تراجع عنها في اللحظات الأخيرة.. فعليًّا كَانَ "قائظ" ذو الضربات العشوائية هو مَنْ رَمَى رَمِيتهِ مِنْ جَدِيدٍ وأتى بـ"حازم" إلى السادس عشر من أكتوبر عام ١٩٧٣.. بعد أَنْ خَيَّبَ "حازم" خَطَّتَه في أكتوبر ١٩٥٦.. ومن جَدِيدٍ يلهث "واعظ" ويكافح ويناور ويلاحق تلك الممعمة الجديدة الموشكة على البدء.. ومن جَدِيدٍ ليس بمقدوره -إنْ وصلَ في الثانية المناسبة- إلا أَنْ يَكشِفَ النتائج الجديدة لأي فعلٍ إراديٍّ يقوم به "حازم" في تلك الجَوْلَة.. و"حازم" ينطلقُ بطائرتِه في تلك الأيام الملحمية التي وجد نفسه في قلبها، إلى موقعٍ أهم حدثٍ في ذلك اليوم.. حدثٌ كادَ أَنْ يَقلِبَ الأمورَ جميعها رأسًا على عقب.. حدثٌ يَظنُّ "حازم" أَنْ منعه يمهِّد الطريقَ لوطنِه لنصيرِ ساحقٍ ماحقٍ.. ينطلقُ بطائرتِه إلى البحيرات المرة جنوب قناة

السويس.. ينطلق إلى هناك لأنه يعرف أنّ في تلك اللحظات
يعبرُ الجيشُ الإسرائيلي بقيادة "شارون" قناة السويس عبورًا
عكسيًا.. نحو الغرب.. ويدخل مصر.

بددت تلك الصرخة الأثوية الملتاعة كل الطمأنينة التي تعم المكان. توقفت الموسيقى وتوترت الأعصاب وتحقّز الجميع وانطلق العديد من الشباب (أبناء العم) نحو الجبل ركضًا بسرعة هائلة. كئي يقين أنا و"أكرم" أن "عمر" ارتكب شيئًا ما هنالك دفع تلك ابنة العم للصراخ هكذا، لكنه مهما كان مخطئًا فلن نتركه لهؤلاء المتحمسين ليفتكوا به، فانطلقت أنا و"أكرم" تلقائيًا في الركض وراء الراكضين نحو الجبل، فظنّ آخرون أننا نركض وراء الراكضين لنفتك بهم، فركضوا بدورهم وراءنا.. أعتقد أنه لو كان هناك مصريون غيرنا في المكان -بخلاف العاملين- لاتخذوا دورهم في المطاردة وراء الراكضين الجدد.. وهكذا وهكذا إلى أن نشكّل جميعًا طابورًا طوله كيلومترات يجري نحو ذلك الجبل.

لم يستمر هذا الوضع المتوتر أكثر من ثوانٍ قبل أن تجلجل ضحكة أثوية أخرى مع صراخ الشابة التي أشعلت الموقف، ما أوحى لنا جميعًا أنه لا توجد أزمة هناك، فبردت الأعصاب واستمر بعضهم -ونحن طبعًا- في الصعود للجبل على أي حال، ولقتل أي شكّ كذلك.

وصلنا قمة الجبل الصعب ونحن نلهث، فارتمينا أرضاً جميعنا، وانطلقوا هم في حوار لاهث يستفسرون من الشابتين، ونحن نسبّ "عمر" ونسأله وسط لهائنا أيضاً.. فقال "عمر" إنها بهيمة و"ملهاش في الطيب نصيب" وكلام مثل هذا.. سألته إن كان يقصد ما ظننته، فنفى وفاجأني بأنه عَرَضَ عليها شراء قلادة مماثلة من تلك الـ... (ما اسمه ذلك الشيء).. تلك التي في صدره التي تشبه اللبّانة ذات الستة الآلاف جنيه، وأن هذه الفرصة ستغيّر حياتها للأبد وستجعلها مليونيرة بمجرد أن تنمو شجرة عملاتها في غضون ث... بلا بلا بلا بلا.

وددت من كل قلبي أن أحتضن تلك الشابة التي صرخت، تضامناً معها، وعرفت أن سبب صراخها أن كثيراً من أصدقائها هناك - في المكان الذي جاءت منه - عرضوا عليها كثيراً وبالإحاح لزج نفس هذا الموضوع، وعندما فاجأها "عمر" بمشروعه الذي يغيّر حياة البشر صرخت في مزيج بين المزاح والانفجار مللاً وإعلان الرفض القاطع مقدماً. أما "أكرم" فانطلق في وصلة تعنيف شديد لـ "عمر":

- إنت عايز تتاجر مع دول؟ وعلاقات بقى واتصالات! إنت اتجننت؟!

ردّ "عمر" ردوداً كثيرة بها من المنطق شيء، وإن لم يبدُ عليه أنه يبالي بشدة بهذه الأخلاقيات.. تَلَفَّتْ حولي لأرى المشهد لأول مرة من هذه القمة المرتفعة.. مشهد خلاب لا يوصف

- الجبل ملكي.. لا يعلمون.. الجبل ملكي.. سيهلكون.

إلى أن اختفت تمامًا، وعادت الموسيقى تملأ المكان رويدًا رويدًا، وعادت الطمأنينة وكل شيء أصبح في مكانه من جديد.

جلست أرضًا سانداً ظهري على جذع نخلة عاقدًا ذراعِي أمامي، و"أكرم" بجانبني متكئ على وسادة، و"عمر" في لحظة نادرة يشاركنا الجلوس وهو يقوم بالتطويل على طبلية أمامنا على رتم الموسيقى التي تلعبها مجموعة جالسة في مظلة مجاورة لنا. لم أدرِ كم من الوقت مرَّ هكذا، وهي إحدى المميزات الرئيسية هنا.. إلى أن وجدت شابة كنت أراها كثيرًا في الأيام السابقة، وجدتها قادمة من بعيد تتحدث مع كل مجموعة جالسة لثوانٍ قبل أن تنتقل لمن يليهم حتى جاءت أمامنا، فسألنا ببساطة بالإنجليزية:

- أتودون أن تأكلوا مجلوبة في الغداء؟

لم تبدُ جرسونة، فأدهشنا سؤالها، وردَّ "عمر":

- ستدعيننا عليها أم ماذا؟

فاندهشت بدورها وقالت مبتسمة:

- ظننتكم تعرفون. المجلوبة لا يتم طهيها هنا لأقل من أربعة أشخاص.. وأنا وصديقتي نودّ أن نأكلها ونبحث عن اثنين إضافيين.. إنها رائعة ستعجبكم جدًا.

فقال "أكرم" بجفاء:

- بالتأكيد هي رائعة، لأنها أكلة فلسطينية.

تجاهلت تعليقه وسألت:

- أي أحد؟

فرفض "أكرم"، ووافق "عمر"، فصققت الشابة فرحًا وهي تنظر لي قائلة:

- يتبقى واحد.. لا نخذلنا نحن الثلاثة.. ستعجبك جدًا.

لم نرد التوغّل إلى هذا الحد.. ولم أرد أيضًا إبداء العدوانية دون دافع أو سبب واضح. ما في القلب في القلب، لكن لو باح كل البشر بما في داخلهم ببساطة هكذا لفسدت الأرض. بين هذا وذاك لم يكن لديّ مانع، أردت فقط أن أسأل عن شكل التقديم، وهل سيجبرنا هذا على الجلوس معًا نأكل من صينية واحدة! كان هذا كثيرًا عليّ أعتقد.. وكأنا قرأت أفكاره فقالت من تلقائها:

- يغرفونها في أطباق منفصلة.. سيجيئك طبقك منفصلاً إلى مكانك. كن رابعنا.. هيا قلها!

- موافق.

رفعت ذراعيها بالكامل للسماء وأطلقت صيحة فرح عالية، واستدارت وانطلقت في قفزات متتالية رأسًا على عقب في شكل

عجلة كلاعبات الجمباز، فنثرت الرمال من قفزتها الأولى في وجهي ووجه "أكرم" الذي أطلق سبة غليظة بالعربية، نظر لنا على أثرها بعض الشباب المجاورين. يبدو أن السباب المصري لا يعرف حدوداً جغرافية أو لغوية. ثم رفع أحدهم رأسه أكثر لتتلاقى أعيننا، وصاح فينا بالعربية:

- بن زونا!

نظرته وملامح وجهه أغنياني عن محاولة فهم أن هذا سباب، موجّه لنا في أعيننا، لكنه تطوع بقتل أي شك لدينا، وقال بعربية واضحة:

- يعني.. يا ابن الزانية!

ينطلق ”حازم“ بطائرته والحماس يملؤه، وكل ما يعرفه فعليًا عن ثغرة الدفرسوار أنها تلك المنطقة الواقعة على يسار الجيش الثالث ويمين الجيش الثاني.. وأن مثل تلك النقاط تكون هي الأضعف دائمًا في أي جيوش تخوض أي حرب.. وأن من كشف وجود تلك الثغرة هي طائرة استطلاع أمريكية وقامت بنقل المعلومة فورًا للإسرائيليين.

يعرف ”حازم“ فقط أن الإسرائيليين عبروا وحاصروا الجيش الثالث، أو للدقة، قطعوا عنه أي إمدادات.. يعرف أنه كان من الممكن تصفية هؤلاء الذين عبروا، ويعرف أن ثمة خلافًا تاريخيًا نشب بين العظيمين أنور السادات وسعد الدين الشاذلي بهذا الشأن.. ويعرف أن أقصى غرض لتلك العملية الانتحارية كان فقط تحسين شروط التفاوض وليّ ذراع المصريين الزاحفين تطهيرًا في سيناء.

لكن ثمة أشياء لم يكن يعرفها ”حازم“.

لم يعرف ”حازم“ أن خطة العبور تلك المسمّاة بـ”القلب الشجاع“ كانت موضوعة سلفًا من ”شارون“ نفسه.. أولئك

الذين ملؤوا الدنيا ضجيجًا عن استحالة تحطيم أو عبور خط بارليف كانوا مؤمنين عمليًا بقدرة المصريين على عبوره، لدرجة أنهم جعلوا سائر بارليف الترابي سُمكه أقل بكثير -عن عمد- في تلك المنطقة.. وقاموا بتجهيز الخطة البديلة.. بل قاموا بوضع علامات (حجارة حمراء) تمهيدًا للتنفيذ الفعلي في اليوم الموعد.. فقط أكدت لهم الطائرة الأمريكية أن الطريق مفتوح بالفعل.

لم يعرف "حازم" أنه على الرغم من كل هذا.. فإن اتخاذ قرار تنفيذ تلك الخطة قوبل ببلبلة وتردد ورعب أشداء.. وكان أشد المؤيدين لتنفيذها "شارون" بالطبع، الذي استمات من أجل دفع قرار قيادته لقبول تنفيذ "القلب الشجاع".. وسافر الجنرال "حاييم بارليف" بطائرة هليكوبتر، صاحب الحصن المنيع الذي لا يُقهر، إلى "موشى ديان" في القيادة العليا، ليقنعه ويحصل على تصديق مختوم للسماح لهم بعبور الخط إلى الغرب، الخط الذي تم عبوره بالفعل شرقًا من المصريين.

لم يعرف "حازم" تفاصيل مهولة كثيرة، منها أن العبور نفسه كان قد تم جزئيًا قبل أن يكتمل.. وأن "شارون" عبر بالفعل بما يزيد عن خمسمائة دبابة وعدة فرق مظلات كانت مرتكزة أمام ممر متلا قرب نخل.. ولتشجيع قيادته على المضي قدمًا، أرسل لهم رسالته التاريخية:

- نحن الآن في إفريقيا.

لكن لم تكن تلك القوة كافية، ولم يكن عبور المزيد من

الإسرائيليين مطمئنًا كذلك.. فقامت أهم معركة تخص هذا الشأن.. تلك المسماة بالمزرعة الصينية.

كانت المزرعة الصينية هي أقصى نقطة تخص الجيش الثاني المصري من جهة اليمين، وكان يتوجب إبادتها لتوسعة الممر الإسرائيلي للعبور الأضخم، من معدات وماكينات ودبابات ومشاة، يكفل عبورهم جميعًا تطوير الحرب لصالح الإسرائيليين، ونقلها إلى أبعاد أخرى تمامًا.

نقطة مصيرية في التاريخ هذه المعركة.

رمى الإسرائيليون بما يملكون في تلك المعركة بسخاء وبذخ شديدين.. تقدموا نحوها بكل التجهيزات الممكنة وليس في رؤوسهم سوى هدف وحيد، إبادة تلك النقطة الحصينة وإزالتها من الأرض.

حبست القيادة الإسرائيلية أنفاسها ووقفت على أطراف أصابعها، وبدأ بعض القادة في حصر وتجهيز الأعداد الأضخم من المعدات والجنود، للدفع بهم أجمعين عبر تلك الثغرة، فور إبادة المزرعة الصينية.

وبدأ الهجوم الإسرائيلي بلا هوادة ولا جس نبض.. كانت الأوامر مغلقة بمفهوم -وهو صحيح- أنها معركة المصير كله.. بدأ الضرب في مساء الخامس عشر من أكتوبر، ولم يتوقف إلا قليلًا عند بزوغ فجر السادس عشر من أكتوبر.. أربع عشرة ساعة من القصف والضرب ومحاولات التقدم.. وباءت جميع

هجمات الإسرائيليين بالفشل الذريع.. وكان هذا بعضًا مما قاله فيما بعد العقيد ”آمنون“ قائد الهجوم على المزرعة الصينية: ما من شبر لم يتم قصفه بعنف أو إلقاء قنبلة أو رصاصة عليه.. ولم ينسحب المصريون، للدرجة التي ظننت معها أنهم مربوطون بسلاسل.. وتعرضنا نحن لشبه إبادة.. ثم سعدت بعد الفجر إلى تبة مرتفعة تشرف على أرض المعركة، فوقعت عيناى على منظر مفزع.. كانت الصحراء مغطاة أمامى بأعداد كبيرة من الدبابات والمركبات والمدافع والناقلات المحترقة والمشتعلة، وكذا عشرات من مركبات القيادة وورش الصيانة المتنقلة ومنصات إطلاق الصواريخ.. وكانت أشلاء الجنود الإسرائيليين متناثرة هنا وهناك ولا يفصل بينها وبين المواقع المصرية سوى أمتار قليلة.

ونقل مراسل صحفى أمريكى: فى قطعة صغيرة من الأرض لا تزيد عن بضعة آلاف من الأمتار، وجدت الكثير من الدبابات الإسرائيلية محترقة تمامًا.. والدبابات والمركبات التى أصيبت بصورة أقل تم سحبها بعيدًا عن المعركة لإصلاحها.. وفى مكان واحد وجدت دبابة إسرائيلية ودبابة مصرية محطمتين ولا يفصل بين مدفعيهما سوى بضعة أمتار.

لم يعلم ”حازم“ أن من ظل حيًا من الإسرائيليين فى تلك المعركة قضى ساعات فى الظلام نائمًا على بطنه دافئًا رأسه فى الرمال يحاول أن يحفر الأرض بأظافره ليصنع خندقًا يواريه،

ومن يتجرأ ويرفع رأسه كان الرصاص المصري يخترقه ويلاقى حثفه في ثوانٍ.

وعندما جاءت التعزيزات الإسرائيلية لتحرير العالقين لم يستطيعوا تحديد أماكن اختبائهم، فقام الجنود أنفسهم بتفجير قبلة دخان أحمر للإشارة عن أماكنهم.. ففتح المصريون بوابات جهنم من جديد على تلك الأماكن، لتستمر الإبادة التي أصابت قائد تلك الفرقة -حسب كلام "موشى ديان"- باكتئاب شديد، وهو من لم يكن لديه أبداً أي شعور.

لم يعلم "حازم" أن بعد انتقال تقارير الفشل الإسرائيلي الذريع في تلك المهمة إلى مراكز القيادة، أصدر "موشى ديان" قراراً بإلغاء الخطة وانسحاب فوري من الضفة الغربية لأولئك الذين عبروا بالفعل.. وقال بالنص: لقد حاولنا ومحاولاتنا ذهبت أدراج الرياح.. أقترح إلغاء فكرة العبور تماماً، إذ أن المصريين سيذبحون قواتنا على الشاطئ الآخر.

لكن جنرالاً آخر يدعى "جونين" ردّ قائلاً بالنص: لو كنا نعلم مقدماً أن كل هذا سيحدث ما كنا بدأنا عملية العبور.. أما الآن وما دمنا قد عبرنا فلنستمر حتى النهاية المبررة.

وأيدّه في هذا الطرح الجنرال "بارليف"، ودبّ خلاف كبير بين "جولدا مائير" وجميع الوزراء.. انتهى بقرار الاستمرار في طريق الهلاك.. وتم تكليف العقيد العنيد "آمنون" بشن الهجمة الرابعة على المزرعة الصينية من جديد، لعل وعسى

ينجح تلك المرة ويبيدها ويعطي عملية العبور قبلة الحياة،
وطور بالفعل خطة هجومه ببراعة متعلماً من دروس الهجمات
الثلاثة الفاشلة السابقة.. ولكنه من جديد يلحق نعل الهزيمة،
وتصبح معداته شحيحة العدد مهترئة الحال.. فيعود الجميع
للخطة الأصلية شبه المعدومة الأمل، ويقررون العبور بالقوات
المتاحة، للالتحام بقوات "شارون" في الضفة الغربية.

لا يعلم "حازم" كل ذلك.. ولا يعلم أن مجرد عبور تلك القوات
الإضافية المتاحة والتحامهم بالقوات المتمركزة غرباً يكفي بالكاد
لترسيخ قدم إسرائيلية وحيدة، تسمح لهم بتمرير بعض من
الهواء عبر حناجرهم ليهز أحبالهم الصوتية قليلاً، فيتفوهون
ببعض الكلمات أمام شعبهم والعالم.

لا يعلم "حازم" وهو ينحرف بطائره يميناً متجهاً صوب تلك
الثغرة أن القوات الإضافية بدأت حالاً بالعبور.

يرى "حازم" الجسر من قمرة قيادته.. والدبابات البطيئة
ترتقيه واحدة تلو الأخرى.

يرفع "حازم" ثلاثة أزرار متتالية.. وينطلق صوت متقطع
علامة جاهزية الصاروخ للانطلاق.

نتقافز نحن ونشد شعورنا ونصرخ فيه:

- دعهم يعبرون يا "حازم".. سننتصر، سننتصر وأنت تعلم..
دعهم يعبرون!

لكنه لا يسمعنا.

يوجّه "حازم" مؤشر التصوير نحو منتصف الكوبري، الذي وصلته أولى الدبابات بالفعل.

يتذكر بعضنا إحدى مغامرات "نور" وفريقه في "ملف المستقبل"، عندما انتهت إحدى مهماتهم على الحدود المصرية الشرقية يوم الخامس من يونيو ١٩٦٧، ورأوا رأي العين الطائرات الإسرائيلية منطلقة لتذيق المصريين نكسة سوداء.. فرفع أعضاء الفريق أسلحتهم المتطورة للقضاء على تلك الطائرات، فأوقفهم "نور" وأمرهم بترك التاريخ يأخذ مجراه.. معدداً المكاسب اللاحقة التي جنيهاها بعد تجاوز آثار تلك النكسة.

نتذكر هذا ويقنعنا المنطق.

- دعهم يا "حازم".

بينما يضغط هو زر الإطلاق.

وينطلق الصاروخ كسهم ناري عملاق.

ويصيب الصاروخ هدفه بدقة.. وتنقطع أوصال الإمدادات للألوية الثلاثة وفرق المظلات و"شارون".

يكبر "حازم" فرحاً.. ويدور بطائرته بعد أن ترك ذلك الموقع وتوغّل قليلاً فوق سيناء، ليعود لهم من جديد.. ليذيقهم صاروخاً آخر.

يقترَب الآن من قناة السويس متجهًا صوب "شارون" في الغرب.

يرفع أزراره الثلاثة من جديد.

يَجْهَز الصاروخ الجديد.

يوجّه "حازم" مؤشر التصويب نحو ذلك التكتل الإسرائيلي.

وقبل أن يضغط زر الإطلاق، يصيب ذيل طائرته صاروخ دفاع جوي إسرائيلي، فتتحول طائرته إلى صاروخ معطوب منطلق بالقصور الذاتي.. يجرّ وراءه ذيلًا من الدخان الأسود.. ويهوي إلى الأرض بتسارع ٩,٨١ متر في الثانية المربعة، المتعارف عليه.

ترتج الطائرة بعنف كأن شياطين جهنم تتقاذف عليها.. تهبط جميع المؤشرات وهي ترتعش بجنون.. يسمع "حازم" عبر خوذته هدير المحركات المعطوبة يتصاعد.. بينما اكتست شاشته بالضوء الأحمر مطلقة بدون توقف سرينة إنذار متقطع.. يشم "حازم" عبر قناع الأوكسجين روائح دخان كثيف ومعادن تحترق.. يدفع ذراع القوة لأقصى عزم انطلاق.. ويجذب بكل ما أوتي من طاقة ذراع رفع الطائرة لأعلى، ولا تستجب له الطائرة التي أمالت مقدمتها للأمام لتهوي إلى الأرض كالرمح بزاوية حادة.. ويرى "حازم" المزارع والمنازل تتشكّل وتقترب بسرعة جنونية.

وبعد أن صارت تلك القوات الإسرائيلية معزولة، أصبحت

هالكة لا محالة.. لكن "شارون" لا يشعر بأي قلق أو توتر طبقاً لهذا التحديث في الخطة.. بل يتسم ويشعر بحماس وجذل شديدين.. ويستدير بنفسه مولياً قناة السويس ظهره.. ويبعث برسالة لا سلكية لقيادته:

- من مركز القيادة في إفريقيا.. تم تدمير جسر العبور.. لا مزيد من القوات يمكن أن تنضم إلينا.. هذه رسالتنا الأخيرة.. سنتجه فوراً صوب القاهرة.

ويستلّ الجميع أسلحتهم ودباباتهم.. وينطلقون إلى معركتهم الأخيرة.

obeikandi.com

بعد أن أطلق ذلك الشاب سبَّته علينا، متبوعة بترجمة عربية، وقبل أن أستوعب الموقف أو أقرر رد الفعل، كان ”أكرم“ قد تجاهل حقيقة أنه هو من بدأ بالسباب، وانطلق بالفعل كطوربيد ألماني فرز أول، مطيحًا في انطلاسته المهولة بالطبلىة، وما عليها من أكواب، واثنين من أصدقاء ذلك الذى سبَّنا، قبل أن يحطَّ على ذلك التعيس كجلمود صخر.. فى ثانىة واحدة تكهرب الجو كله، وبطرىقة أو بأخرى استخلص أبناء العم زميلهم من ”أكرم“ قبل أن يوسعه المزيد من اللكمات الأصيلة.. الغرب أن سلوكهم مشابه لسلوكنا فى مثل هذه المواقف بشكل ما.. تعلم عندما يتورط ابن شخص مسكين فى مشكلة مع شخص مهم أو يبدو مهمًا، فىنهال الأب عديم ”الزهر“ على ابنه بالتوبيخ الشديد وأحيانًا بالصفعات دون أن يعرف تمام أبعاد المشكلة، وأحيانًا دون أن يكون ابنه مخطئًا بالأساس.. قد يتطور الأمر كذلك إلى ”بوس إيد سيدك يا ابن الـ...“ أبناء العم هنا ليسوا مساكين، بل هم الأكثرىة فى مفارقة صنعها القدر.. لكنهم اتبعوا نفس السلوك لتهدئة الأجواء.. فىمجرد إبعادهم للطرفين الملتحمين، كان التعنيف والتفريع بعبرىة غليظة ينهالان على

صديقهم مطلق السباب.. الذي لم يهدأ بدوره، فأطلق سبّتين عربيتين أخريين بصراخ هادر.. لا يريد أن يصمت ذلك اللعين.. فأرخينا قبضتينا أنا و"عمر" الممسكتين بـ"أكرم"، وطار نحو ذلك التكتل البشري بنفس طريقة "أخيل" في فيلم "تروي" التي طعن على أثرها "بواجرياس".. بنفس الطريقة انقضّ "أكرم" على ذلك الشخص لكن بيد عارية، وأذاقه صفة دوى صوتها في سيناء كلها.

أسقطت تلك الصفة الشاب أرضاً، وأسقطت قناع التهذئة الذي لبسه معظمهم قبلها.. تحوّل الموقف إلى حد كبير.. تطاير الشرر من أعين الجميع وبدوا جميعاً في حالة تأهب قصوى، في انتظار من يطلق إشارة البدء منهم.. فهض مطلق السباب المصفوع المنبطح أرضاً، الذي لا ينفك عن إضافة كنية جديدة في لقيه بعد كل دقيقة تمرّ.. نهض بعد أن ملّم نفسه وكان هو إشارة البدء بالفعل، فالتقط عوداً ليلعب دوراً آخر غير الموسيقى ورفعته عاليًا، ليهوي به على رأس "أكرم" الذي تفاداه في اللحظة الأخيرة، وهمّ الجميع بالاشتباك فانقضضنا أنا و"عمر" مع "أكرم" دون أدنى حسابات لموازين القوى العديدة.. نحن من جاورناهم بالكاد على مضض منذ البداية.. صرنا جميعاً من جديد كتلة بشرية ملتحمة لا تنوي أن تنبسط قريباً.. كان الهجوم بكل ما في المتناول من أيادٍ وأذرع وأقدام ورؤوس وأسنان، تنطلق في أي مكان دون تمييز.. من يسقط يقع عليه الآخرين عمدًا أو عفواً.. كانت "معجزة" سريعة لم يوقفها

إلا صوت رصاصة أُطلقت في الهواء، رجّت المكان رجًّا وأوقفت المشهد، كأن أحدهم ضغط زر التوقيف.. ونظرنا جميعًا نحو مصدر الصوت، لنجده الضابط الشاب الجالس جوار المدرعة منزوعة الإطارات.. رافعًا مسدسه في الهواء، أطلق رصاصتين أخريين وهو محاط بستة جنود مسلحين في حالة استعداد، وهو يصيح بالإنجليزية أن يتعد الجميع بالرجوع خطوات للخلف.

تم فصل القوات البدائية المتلاحمة ببطء.. وأعين أبناء العم مليئة بالترقب والتوجس من الضابط الشاب، لا يدرون هل سيحلّ بالحكمة أم ثمة جديد تخبئه الأمور! ثم ظهر لأول مرة مالك المكان، بدوي كبير في السن جاء مهرولاً يلهث بعد اتصالات من العاملين.

كان الضابط صارمًا بشدة، ولم يستجب بسهولة لصاحب المكان الذي طلب منه المغادرة بمجرد مجيئه، مؤكدًا أن كل شيء على ما يرام.. تعامل معه الضابط باحترام وتقدير لكن دون أن يغادر فعلاً، وتحدث معنا بانفراد وطلب أن يغادر راس شيطان.. قد يكون هذا الاقتراح هو الأسلم على ما يبدو، لكن ضع نفسك مكاننا.. أي مغادرة تلك التي ستقوم بها؟

رفضنا رفضًا ثلاثيًا قاطعًا.. وإن تعكّرت الأجواء بلا أمل في أن تصفو من جديد في المكان الذي صار مشحونًا.. بدا الرضا في نظرات الضابط وطمأننا أن وحدته وحدة ثابتة لا تغادر هذا

المكان، وأنه هو أو زميل له بالإضافة إلى الجنود موجودون على بعد ثلاثمائة متر، عند البوابة.. لكنه طلب أن نتحلّى فقط بضبط النفس وألا نبدأ أي احتكاكات، وأن نظل منتبهين كذلك لا نغفل.

قبل أن يغادر الضابط، أتتنا مجموعة من خمسة أشخاص منهم، مستخدمين جميع مفردات لغة الجسد الممكنة من إظهار الكفين مفتوحتين أمامًا إلى التحرك البطيء إلى رفع إبهام أحدهم للأعلى إلى ابتسامات حذرة، لإرسال رسالة "لا حرب" أو "لا ضرب" أثناء مجيئهم.. كانوا عقلاء للغاية، وقبل أن تبدأ التهديئة فضل الضابط ألا يكون موجودًا أثناءها لاعتبارات كثيرة ومنطقية.. فغادر المكان بالفعل وبدأت مساعي التهديئة برعاية البدوي صاحب المكان الذي انضم إلينا، وتحدث الجميع كثيرًا بالإنجليزية عن عدم جدوى التنقيب عن المخطئ الحقيقي، وعن حساسية الاحتفاظ بتوترات، وعن ضرورة الترفع الفعلي عن أي نية اشتباكات، حالية أو مستقبلية.

للأمانة.. كانوا ودودين وعقلانيين للغاية، لكن -ولا تتهمنا أرجوك بـ"الأفورة" أو "الحسوكة"- لكن من يتحدث في تلك الأحاديث وبتلك اللهجة يُفترض أن يكون هو صاحب الأرض الفعلي.. هل زرت شخصًا أبدًا في بيته وقلت كلامًا من نوعية "البيت بيتك" و"خد راحتك" وهذه الأمور؟ حتى لو كان هو وحيدًا وأنت معك عشرة من أقاربك؟ فقمنا بالرد بألفاظ منتقاة بعناية لاستلام زمام الأمور من دون هدم لتلك المساعي

الضرورة وقتها.

ببطء، راقت الأمور إلى حد كبير.. وازداد هؤلاء الخمسة عددًا وانطلقوا من جديد في لعب الموسيقى، وتورطنا في عدم وجود أي إمكانية للتملص من هذا الوضع، الضروري الإبقاء عليه حتى انتهاء مدة الرحلة الموشكة على الانتهاء بعد يومين بالفعل.

حلّ الظلام، فأشعل العاملون كعادتهم اليومية إضاءة تهم المكوّنة من أنصاف زجاجات بلاستيكية ممتلئة لمنتصفها برمل مغروس به شمعة، تضيء وسط الظلام تأثيرات جميلة للغاية.

بعد ساعة على هذا الوضع ظهرت الشابة عاشقة الجمباز، ومعها سيدة في منتصف الثلاثينيات ويتبعهما عامل يحمل صينية كبيرة، فأشارت له بمرح كبير على الطبلية الواقعة أمامنا وقالت:

- هنا.. ضع الطعام هنا.. سنأكل مع أصدقائنا المصريين.

وهكذا.. بعد أن كنا على مشارف سيناء لا ندري إلى أين سنذهب، صرنا جالسين وسط أكثر من عشرة إسرائيليين على أضواء الشموع وعلى أنغام الموسيقى تتبادل حوارات باسمه، ونأكل "مقلوبة" معًا!

obeikandi.com

الجيش المصري بأكمله في سيناء.

و"شارون" وكتلة عسكرية كبيرة في غرب السويس.

و"حازم" في طائرة تترنح وتقترب من الأرض.

وصدر القاهرة مفتوح تمامًا.

يفقد "شارون" أي أمل في النجاة بمن معه.. فيختار التقدم إلى القاهرة، من باب (عليّ وعلى أعدائي)، ذلك العاشق للدماء المدنية.. وأيضًا من باب توفير فرصة أخيرة لقيادته السياسية لعمل شيء ما استغلالاً لتقدمه الصارخ في العمق المصري، بالإضافة إلى رفع معنويات جنود جيشه في جبهة القتال في سيناء.

يمد "حازم" يديه أسفل مقعده، ويخشّب عضلات رقبته تجهيزًا للانطلاق القادم.. يتحسس كالمحموم إلى أن يجد كلتا الذراعين المطلوبتين.. فيمسكهما ويجذبهما بعنف.. وفي جزء من جزء من الثانية يُفتح الزجاج العلوي وتنفجر قنبلة في أسطوانة معدنية صلبة أسفل كرسيه، فتتحول إلى صاروخ يقذفه وكرسيه

إلى السماء.. قبل أن تتوقف رحلة صعوده إلى أعلى لنصف ثانية قبل أن تعمل قوانين الجاذبية الأرضية من جديد.. تُفتح مظلته ولا تخفف الكثير من سرعة هبوطه.. تُفتح على ارتفاع ليس بكافيٍّ تمامًا.

لم تعمل المظلة بشكل جيد، فكان اصطدامه بالأرض عنيفًا تلك المرة، للدرجة التي أفقدته الوعي لدقائق، يفيق بعدها مذعورًا أنّ "شارون" ورفاقه يتوغلون غربًا بسبب فقدانهم الأمل.. لا يتذكّر من قائل مقولة "اترك لعدوك منفذ هروب.. لا تحاصره بالكامل" لكنه يفهمها الآن ويقتنع بها.. متأخرًا.

ينزف "حازم".. يتصبب عرقًا.. ويكسو الغبار وجهه وملابسه الممزقة. يتحامل ويحاول النهوض.. يعمي عينيه وهج قرص الشمس فيقع ثانية.. منهك جدًّا.. يدفن رأسه في رمال الصحراء الحارقة، ويضرب الأرض بقبضتيه غير مصدق أن ما فعله وملاه سعادة وفخرًا منذ قليل، يتحول الآن إلى أبشع كابوس ممكن.. كابوس مرئيٍّ ومسموع وملموس، كابوس يتحقق ويملؤه عارًا يدفعه دفعًا للانتحار.

يتعالى صوت بكائه ونحيبه ندمًا وقلقًا مما هو آت، إلى أن سمعهم قادمين.. ماكيناتهم وجنازير دباباتهم ومدركاتهم تقترب ببطء.. وضجيجها يعلو شيئًا فشيئًا.

- "اللعنة! بتلك السرعة!؟".

يرفع رأسه فتمرق رصاصة بصفيها الحاد جوار أذنه. يلتصق

بالأرض ويزحف. يقتربون وتمرق رصاصتان أخريان فوق رأسه. هم أسرع منه كثيراً. يملؤه الندم لا الخوف، على قومه لا على نفسه. يرتفع صوت ضجيجهم بشدة فيصم أذنيه. يتحامل وينهض ويجر ساقه المصابة، وتتطاير من حوله رصاصاتهم الغزيرة. يجري كالأعرج وهو ينزف والمسافة بينه وبينهم تقترب بشدة.. إلى أن أصبح في وسطهم تماماً، لكنهم يمشون في طريقهم كأنه سراب أو هباء منثور.. ليدرك أنهم لا يرونه.. هم فقط يطلقون نيرانهم على سكان تلك القرية القريبة. فيدرك أن دوره في تلك الجولة قد انتهى.

وأنه فقط سيشاهد نتيجة فعلته الحمقاء، التي ظنها عظيمة. وأنهم متجهون كالشؤم، بذلك الجيش وتلك النية السوداء، إلى قلب وطنه.. إلى القاهرة.

لا يصدق أن هؤلاء الجنود بزيتهم ذي اللون الزيتي ورمزه المقبض للقلب، تطأ أحييتهم وماكيناتهم طريق السويس - القاهرة بهذا العمق.. بسببه هو وصاروخه اللعين.

لكن "حازم" الفاقد لتمييز الاتجاهات لا يعلم أن الحشد العسكري ليس متجهًا إلى القاهرة، حتى الآن.. بل هم في طريقهم إلى مطار فايد العسكري. حدث أن راقت فكرة التوغل الانتحارية بشدة للقيادة الإسرائيلية.. دفعهم "شارون" عمليًا للتفكير الفعلي في الضربة القاضية. في اجتماع محموم للقيادة العليا قرر الجميع فتح خط إمدادات جوي لدعم تلك الكتلة

الانتحارية المتوجهة للعمق المصري، مهما كانت الخسائر المحتملة. أرسلوا إلى "شارون" أمراً بالاستيلاء على أقرب مطار من ناحية القناة، قرب الثغرة شبه الخالية من الدفاع الجوي.. وهو ما حدث بالفعل في ضربة مباغته غير متوقعة.

كالمسعورين أطلقوا طائرات المدد لنقل ثلاثة ألوية إضافية، مسلحة بالمتبقي لجعل هذه الكتلة جيشاً صغيراً مكتمل الأركان، أملين في وصول لواء وحيد من الثلاثة على الأقل للالتحام بقوات "شارون"، فتم بنجاح نقل لوائين كاملين بعثادهم.. وتم صف القوات وفتح الخرائط والاتجاه إلى القاهرة. فيتمدد الورم السرطاني في الجسد المصري.

بعد أن تم رصد قوام تلك القوة تم سحب جميع فرق وكثائب وألوية المنطقة المركزية للجيش المصري، وإعادة التمرکز في كتلة واحدة في القاهرة، تجنباً لتعرضها للسحق واحدة ولو الأخرى فرادى.

ينتشر الخبر فعلياً في جميع أنحاء الوطن.. ودون ترتيبات أو انتظار توجيهات هبّ المواطنون للتصدّي لذلك الهجوم، بأي طريقة ومهما كانت التضحيات.

وكان يوم الحشر قد قام في أنحاء مصر بأسرها.. توقفت الحياة ونزل الجميع.. كلمة "الجميع" هنا تعني الجميع، شاباً ورجالاً وشيوخاً وسيدات متجهين مهرولين لملاقاة هذا العدو، الذي ما كانوا يتوقعون مواجهته وجهاً لوجه هكذا.. استقل

الجميع سيارات وحافلات.. لا أحد يسأل كيف أو إلى أين أو ماذا بعد. إسرائيل هنا.. وجيش مصر هناك.. وصدر القاهرة مفتوح.

تبدأ المواجهة المحسومة على أطراف القاهرة بمأساة صغيرة.. يتجّـل عشرة آلاف من الأوتوبيسات والسيارات أمام الإسرائيليين. حينما يعميك الغضب والغيرة على وطنك عن أي صواب وأي حسابات عقل.

ويجدون أنفسهم عُزّل في مواجهة جيش مسلح خسيس.. لم تدر تلك الجموع المدنية يقينًا ماذا هم بفاعلين.. فقط مهرولين مهللين مكبرين صوب العدو، وبعضهم يلتقط أحجارًا ليقذفهم بها!

دون أدنى تردد يفتح الجيش الإسرائيلي نيرانه ويلقي قنابله.. ولم يتراجع شخص واحد، ولم يفسح الطريق.

يروق الأمر للجنود الإسرائيليين فيبدوون في الترجّل من المدرعات، ليتسنى لأكبر عدد منهم إطلاق نيرانه على أكبر عدد من المصريين.

وتتكوم الأجساد ويصطبغ الأسفلت بدماء غزيرة.. ويبادوا جميعًا.

عشرة آلاف جثة مصرية.. على مدخل القاهرة.

وقمّر الدبابات فوق أجسادهم.. فعلها الإسرائيليون من قبل مع أسرى ٦٧.. ويكررونها الآن مع مدنيين.

ويستمر الجيش الإسرائيلي في توغله.

وتصل تلك الأخبار المشؤومة للجيش المصري في جبهة القتال.. وهم في علم ويقين عن استحالة العودة لإنقاذ أي شيء.. فيجنّ جنونهم إلى درجة فقدان القدرة على التفكير فيما هو دون سحق العدو أينما يُرى.. وجاءت الأوامر الواضحة، التقدم للأبد.. التقدم حتى الموت، لآخر واحد.. منا أو منهم.

تدبّ الحياة من خلالهم في رصاصاتهم وقذائفهم وقنابلهم.. صار التوحّش هو العنوان والسحق هو سيد الموقف.

يتم تفكيك معدات الدفاع الجوي ونقلها لخطوط أمامية أبعد بكثير، وإعادة نصبها لتأمين زحف القوات البرية.. وكانت الصواريخ مطيعة للغاية في اصطياد الكثير من طائرات العدو.

وتصدر الأوامر لجميع قطع الفرقاطات البحرية المصرية بالاقتراب لأقصى مدى ممكن، وقصف القواعد الإسرائيلية في شمال سيناء بصواريخ بحر / أرض، لتمهيد الأرض للجيش البري.

ولم يقف في وجه القوات البرية المصرية جندي أو معدة عسكرية أو كتيبة من العدو إلا وأبيدت عن بكرة أبيها.

لا يوجد أسير إسرائيلي واحد.. من يظل حيًا بعد إسقاط وحدته يتم ذبحه.. ويتم فصل رؤوس جميع القتلى والاحتفاظ

بها.. والاستمرار في التقدم.

كان جمع رؤوس القتلى هو إحياء لتكنيك قديم قَدَمَ الغزوات.. حيث قام الضباط والجنود بتصنيع منجنيق بأدوات بدائية، وقبل الاشتباك الفعلي مع أي وحدة يتم ملاقاتها كانوا يقذفونهم برؤوس زملائهم ذوات الخوذة الزيتية والنجمة، والتي يتدلى منها قطع من لحمهم وأوردتهم المبتلة بالدم الطازج. يرفع بعضهم الراية البيضاء.

”أي راية بيضاء تلك؟“.

ويستمر الكسح دون هوادة ودون رحمة ودون أسرى.. من لم يفر من الإسرائيليين صار كالدياجة الجاهزة للذبح مثل سابقه.. وهو ما قد حدث فعلاً.

وفي الجبهة المدنية المصرية يزداد تقدم الإسرائيليين نحو القاهرة، فيجدون بعد كيلومترين من مجزرة العشرة آلاف مدني، أرتالاً من السيارات والأوتوبيسات مصفوفة لتسد الطريق أمامهم. لكن هيهات.

تستمر الدبابات كما هي وتقوم بسحق السيارات وجرف الأوتوبيسات كأنها علب سردين فارغة.. ليفشل أيضاً حائط الصد المعدني في إيقاف العدو.

وبعد كيلومتر واحد كانت قد وصلت قوات الشرطة التي أدارت معركة رائعة، دمرت فيها سبع دبابات للعدو وقتلت العشرات، قبل أن يتفوق الجيش الإسرائيلي بفعل صواريخه المحمولة ويحطم آليات الشرطة المصرية ويقتل الجميع، بعد معركة ضارية استمرت ثلاث ساعات.

ويستمر الجيش المصري بغضب هادر في الزحف، وعينه تلك المرة على الما لا نهاية.

التقدم حتى موت آخر فرد.. منا أو منهم.

حينما يسلبك الغضب كل خلايا عقلك.

القيادتان المصرية والإسرائيلية يجنّ جنونهما معًا.. في أول معركة في التاريخ تدور بين جيشين موليان ظهريهما بعضهما لبعض.. صار اللعب على العواصم.. من تقع عاصمته أولاً يموت.

وأخيراً يصل الجيش الإسرائيلي إلى القاهرة.. بداية الأرض الأكثر اكتظاظاً بالسكان.

المصريون بالآلاف في الشوارع لا ينوون الهروب.. مسلحون بأسلحة خفيفة لم تنفعهم شيئاً.

مدرعات شرطة تظهر كل حين لتبلى بلاءً حسنًا، قبل أن يتم اصطيادها وتفجيرها.

والجيش المصري يتقدم هناك في سيناء بدون توقف..
والإسرائيليون يفرون.

وفي القاهرة الإسرائيليون يتقدمون.. ويقتلون.

توقفت الحياة ووقف العالم كله.. وكنتم أنفاسه.. ولم يرمش
أي جفن.. توقفت جميع ساعات الأرض عن الدوران.

اتصالات تنهمر وقرارات تتخذ.. ولا حياة لمن تنادي.

أغضبت الجريمة الإسرائيلية التي تدور العربَ جميعًا، ويعطي
ملك السعودية أمره بالانطلاق للسلاح الجوي السعودي بأكمله.
لم يعد في قوس الصبر منزع.

مستفيدون من دروس الماضي القريب.. وبنفس تكتيك
الإسرائيليين في ٦٧.. انطلقت الطائرات الحربية السعودية جميعها
كالطير الأبابل، لتدك المطارات الحربية الإسرائيلية وممرات
إقلاع طائراتها.

وبسبب كثافة الطائرات المهاجمة.. تم اصطياد ربع الطائرات
السعودية فقط من الدفاع الجوي الإسرائيلي.. سقط من سقط،
واستشهد من استشهد.. وعادت باقي الطائرات إلى قواعدها
ساملة غامضة مدمرة شرايين السلاح الجوي الإسرائيلي.

تجد الطائرات الإسرائيلية المحلقة في الجو نفسها بدون أي
مجال عودة للأرض.. فيقومون بضربتهم الأخيرة هم كذلك..

يتجهون جميعهم إلى بورسعيد ودمياط ويفرغون كامل تسليحهم في الأحياء السكنية.. فعلوها من قبل في مدرسة أطفال بحر البقر وفي مصنع أبي زعبل.. لكنها تلك المرة كانت أكثر سخاء وقذارة.. يفرغون تسليحهم كاملاً في مدينتين.. قبل أن ينحرفوا نحو البحر المتوسط ليقفز الطيارون بالباراشوتات في عرض البحر.. الاختيار الأكثر رحمة عليهم.

يتقدم الإسرائيليون أكثر في القاهرة.. ولا يدير أي من المدينتين المصريين ظهره.. ويتلقون الرصاص ودانات المدافع.

ويلتحم الجيش العراقي مع الجيش السوري الذي يحرز تقدماً رائعاً يربك الجيش الإسرائيلي كله.. ويحصل السوريون على سبق الدخول والتوغل في إسرائيل.. وفي لفتة أصابت الإسرائيليين أكملهم بالهلع، كل كيلومتر كان يتوغله الجيش السوري كان يُنصب عليه علم فلسطين.. ما أرسل رسالة مُزلزلة عن تطوّر هدف الحرب وتصعيد غرضها إلى آفاق عظمى.

وتتحرك الفرقاطات البحرية المصرية شرقاً صوب تل أبيب، فتخرج جميع وحدات البحرية الإسرائيلية لصد اقترابها من الحد الذي يضع تل أبيب في مدى صواريخها.. وتدور أشرس معركة بحرية ممكنة، تحرز البحرية المصرية فيها انتصارات جيدة، لكن مع خسارة العديد من القطع، والأهم، تعرقل التقدم الذي لن يكون سهلاً ولا سريعاً.. فيقوم السلاح الجوي السعودي بأكمله بالإقلاع من جديد للمشاركة في الاشتباك،

ويذيق القطع البحرية الإسرائيلية نيران وصواريخ كالمطار، بل وانقضت عشرون طائرة سعودية على الطريقة اليابانية بعد نفاذ ذخيرتهم في قلب تلك القطع، لتحسم الموقف وتغرق خط بارليف البحري، ويفتح البحر للبحرية المصرية لتتقدم شرقاً.

ويعلن جيش الجزائر الحرب على قوات الاحتلال الإسرائيلية في القاهرة، وتبدأ طائرات نقل الجنود والمعدات في الإقلاع صوب القاهرة، تذكرة ذهاب فقط، حتى تطهير القاهرة أو الشهادة.

والآلاف من المدنيين المصريين يتساقطون كل ساعة.

والجيش البري المصري يقترب بشدة من حدود سيناء الشرقية.

والجيش السوري يتوغل أكثر في إسرائيل، وينقسم الجيش البري الإسرائيلي إلى جبهتين تواجهان زحفاً نارياً لا يبقي ولا يذر.

صار التقدم المحموم هنا وهناك لعباً على الضربة القاضية.

وهكذا دون دعوات.. أو مقدمات.. تدخل أمريكا الحرب.

obeikandi.com

هل أكلت من قبل مع إسرائيليين؟

كان الوضع مقبضًا وغريبًا ومليئًا بالمشاعر المتناقضة.. تارة تستسلم لكونك تمارس معهم في نفس الزمان والمكان أقدم فعل قام به الإنسان لاستمراره على قيد الحياة.. تشعر بنفسك ترتقي فوق صغائر الأمور وتسب السياسة والجشع الإنساني اللذين يفسدان صفو تعارف القبائل وتلاقي الشعوب وتآلف الأرواح.. وتارة أخرى يتحدث هذا مع ذاك بالعبرية فتنتصب كل شعرة في جسدك بالفطرة، وتتساءل إن كنت تتقبل هذا التطبيع الفعلي رغم كل شيء.

المقلوبة نفسها كانت متناهية اللذة.. أجزمنا أنا و"عمر" أن الموضوع كان يستحق.. "أكرم" كان يأكل طبقًا بدويًا غريبًا اسمه بامية بيضاء.. هي بامية بدون صلصة ويجاورها بعض قطع اللحم، وقال هو فيها أشعارًا أيضًا.. والشابتان منهمكتان في سلم في التهام نصبيهما من المقلوبة الرائعة.. وأبناء عم عديدون يشاركونا الجلسة، بعضهم يأكل أشياء وبعضهم يدخن سجائر أو حشيشًا، وبعضهم يلعب موسيقى رائعة بصراحة..

وكانت أحاديثهم معًا تدور بالإنجليزية من باب الذوق لوجودنا، إلا ما ندر وكنت حينها أنقبض كما قلت.

بادرت فتاة الجمباز بسؤالنا وسط الطعام بهرح:

- لم نعرف أسماءكم بعد؟

فدارت الإجابة واحدًا تلو الآخر يقول اسمه، إلى أن جاء دورها فقالت اسمها:

- ميرخاف.

فقال "عمر" بالعربية، والمقلوبة تملأ فمه:

- يا حلاوة!

لم يعلق عليه أحد، وقالت صديقتها إن اسمها "فيكي" والشاب الذي يليها "يوسف"، وقال الشاب الذي يليه اسمه:

- أفيف.

فعلّق "عمر" وهو يأكل:

- يا صلاة النبي!

وجاء الدور على "أكرم" ليقول اسمه، فقال بعدما ابتلع ملعقة أرز وبامية بيضاء:

- أدولف هتلر.

لم أهضم في حياتي الهتافات الحنجورية والشعارات الرنانة.. لم أستسخ مثل هذه الأشياء أبدًا.. كل ما أعرفه في هذا الشأن هو العمل الفعلي والنتائج النهائية.. أي شيء غير هذا هو "فش غل" من وجهة نظري.. تخيل أن شخصًا تكرهه ويكرهك يقوم ببناء صرح كبير، ويضع حجرًا فوق حجر يومًا بعد يوم، وأنت مكتفٍ بالوقوف تشاهده وتسبّه في طلعة كل صباح، وتسب أمه في نهاية كل يوم، بينما هو منهمك في بناء مبناه الذي سيلقي على رأسك أحجارًا من قمته حال اكتماله.. ماذا ستقول لأبنائك عندما يزورونك في المستشفى؟ إنك لم تسكت! بل أذقته من الهتافات أشعارًا؟! مذهل!

فما بالك ونحن في هذا الوضع الواقع بالكاد تحت السيطرة، فيقوم "أكرم" بـ"تلقيح الكلام" ويضرب أحد أهم الأوتار، ويعلن أمامهم بهذا الشكل عن إعجابه بهتلر؟!

انتبهت بشدة وتحفّزت، متوقعًا أن نارًا أخرى ستندلع حالًا.. لكن لم يحدث أي شيء.. فقط ساد الصمت لبرهة، عدا من هؤلاء الذين يلعبون الموسيقى، وإن صاروا يلعبون جملة موسيقية قصيرة واحدة لا تتغير.. وذلك الممسك بالطبلة صارت دقات إيقاعاته عليها خافتة للغاية.. ومن جديد يدون هم بمظهر المتحضرين ونحن -بسبب "أكرم"- نبدو كالغوغاء.. لا داعٍ للتذكري وتغيير الموضوع، ولكن الصمت أيضًا يوحى بموافقة ضمنية.. فقطع "عمر" حيرتي وسألهم بفم مليء:

- هل قتل "هتلر" منكم الكثير؟

لم يدر أحد منهم كيف يردّ، فقالت "ميرخاف" إن ذكريات هذه الأيام باقية ومؤلمة، لدرجة أن والديها قاطعا أخيها لأنه تزوج بألمانية!

هنا اعتدل "أكرم" في جلسته، بطريقته عندما يوشك أن يلقي محاضرة، وقال:

- اسمعوني جميعًا.. إن كنتم تظنون أنني إذا كان الأمر بيدي في تلك الأيام كنت سأفعل بكم نفس ما فعله "هتلر" فأنتم مخطئون.. ديني يمنعني من مجرد إهانة أسرى الحرب، الذين هم محاربون بالأساس.. فما بالكم بقتل أو حرق أطفال ونساء ومدنيين.. لسنا وحوشًا إن كنتم ظننتم هذا. لكن مربط الفرس هو إخواننا الذين هناك تجاوزونهم.. الفلسطينيين. صدقوني، كل صفقة تنزل على وجه أيّهم، تنزل أضعافًا مضاعفة على وجه كل مصري وعربي.. استمروا فيما أنتم فيه وستظل النار متأججة في القلوب، إن كان هذا ما تتساءلون عنه بأعينكم منذ جئنا هذا المكان. وبخصوص اسمي فهو "أكرم"، وأنا أسحب اسمي المزيف وأعتذر عن قوله عمومًا.

فصقّ الجالسون بحماس، لم أعرف هل هي سخرية أم تفاعل حقيقي أم نفاق.. ولعنت "أكرم" في سرّي كونه فتح الكلام في السياسة، أقدر موضوع عرفته الإنسانية. لا يجوز الكلام في السياسة وأنت تأكل مقلوبة على البحر في راس شيطان.. ومع

إسرائيليين!

بتعقل لم أتوقعه، حيّاه بعدها الجميع، وطلبوا السماح بعدم الرد ولا الاستطراد في هذا الموضوع الشائك.. دعنا نمضي وقتًا طيبًا فحسب.

برافو!

وانتهينا من الطعام ونزل الشاي العظيم، ودارت أحاديث كثيرة ونكات أذابت ثلوجًا كثيرة.. فعادت "ميرخاف" من جديد تقول بمرح:

- لقد أكلنا معًا عيشًا وملحًا؛ لا يصح أن تقتلونا إذا قامت الحرب.

سألناها عن مصدرها لذلك المصطلح المصري الأصيل، فقالت إنهم يستخدمونه أيضًا، لكنهم كذلك يعرفون الكثير من عادات ومصطلحات المصريين، وأن منذ زمن ليس ببعيد كانوا جميعًا يتراصون أمام أجهزة التلفاز لمشاهدة الفيلم المصري الأبيض وأسود، الساعة الخامسة عصرًا، وكم من المرات بكوا تأثرًا بالقصة وأحداث الفيلم!

يشاهدون أفلامنا ويعجبون بها دون غضاظة، ونحن ننتع من يزور المسجد الأقصى بالخائن، كون جواز سفره حصل على ختمهم.

سألتها عن فيلمها المفضل فأجابت أنه ذلك الفيلم الذي

أعطى فيه الصيدلي دواءً خاطئًا لطفلة ستذهب به لأبيها..
وهكذا انطلق كل منهم يقول فيلماً يتذكره، إلى أن عادت
”ميرخاف“ لسؤالها من جديد:

- إذا قامت الحرب، ورأيتمونا وجهًا لوجه.

لم تستمر أكثر من هذا في السؤال الواضح.. فقط هي تنتظر
ردًا. قبل أن تأكلني حيرة البحث عن إجابة مناسبة، رد لها
”عمر“ السؤال قائلاً:

- أنتِ ماذا ستفعلين؟

فرد صوت ذكوري بثقة ويقين:

- سأقتلكم طبعًا.. سأحرقكم.

لم تنتظر أمريكا أكثر من هذا.

جاءت هكذا من دون مقدمات أو ترتيبات أو ألعاب سياسية كثيرة.

جاءت.

جاءت لتحارب الجيش المصري الذي يحارب الجيش الإسرائيلي، مولية ظهرها للجيش الإسرائيلي الذي يقتل المدنيين في القاهرة.

كانت ذريعتها في هذا التدخل المباشر هو فصل القوات، لتنفيذ قرار منتظر بوقف إطلاق النار من مجلس الأمن حال صدوره.. وفي الغرف المغلقة استطاعت أن تحيّد أوروبا بحجة أن توسيع دائرة التورط كفيّل بإشعال حرب عالمية ثالثة، لم يميّض على انتهاء الثانية إلا بضع وعشرون عامًا.. ولأسباب مجهولة صمت الاتحاد السوفيتي تمامًا.

تم إبرار الفرقة ١٠١ المحمولة جواً غرب السويس، للتمركز بحجة الدعم السريع حال الاحتياج إليه. وتحرك الأسطول السادس الأمريكي المتمركز في البحر المتوسط صوب مصر..

ونظرًا لتقدم خطوط الدفاع الجوي المصرية للأمام كثيرًا صوب إسرائيل، لم يكن آمنًا تمامًا لطائرات الإنزال وشحن الدبابات الأمريكية الاقتراب من تلك المناطق. وتم إنزال جيش كامل من دبابات وجنود ومدركات غرب قناة السويس.. وللمفارقة الغريبة، بدؤوا هم في عبور قناة السويس للضفة الشرقية. أمامهم ثلاثة أو أربعة أيام للحاق بالجيش المصري من الخلف.

وفي جبهة الدم المتدفق.. يستمر تقدم الجيش الإسرائيلي بقيادة "شارون" مستمتعًا بشلالات الدم المُراق.. فيجد في وجهه ما لم يدرك كنهه أو حقيقته حينها.

كان جيشًا من العمال استبقوا تقدم القوات، وقاموا بالاستعانة بالثقاب الهيدروليكية (التي يستخدمونها في شق الأسفلت وحفره) ففتتوا الأسفلت بما مقداره عرضًا اتساع الشارع كاملاً، وطولاً ثلاثين مترًا.. انطلقت بعدها جحافل من المدنيين العُزل في إزاحة الركام والمخلفات الناتجة عن التفيت.. عملية لوجيستية ضخمة محمومة، طوابير مصفوفة كطوابير النمل.. وسريعًا جاءت مجموعة كبيرة من اللوادر لتقوم بعمل حفرة في تلك الشريحة.. كانت التحركات كثيفة وملتهبة.. والتنسيق وتحريك المجموعات يتم باقتدار.. والتهليل والتكبير لا ينقطعان.. لم يكن هناك خوف من الموت.. فقط الجزع والهلع على وطن يرونه على طريق الضياع.. استطاعت اللوادر الحفر إلى عمق متر..

وجاءت الأخبار أن الإسرائيليين يفصلهم ثلاثة كيلومترات فقط لا غير.. فانتقلوا إلى الجزء الثاني من الخطة.

قامت الحشود بتثبيت مشمع البوليثين سريعًا بطريقة بدائية على جوانب وقاع الحفرة.. وظهرت سيارات تموين محطات البنزين وضخت الواحدة تلو الأخرى كامل حمولتها في ذلك الخندق البدائي.. لا أحد يعلم يقينًا من صاحب تلك الخطة، أم أنها وليدة التفكير الجماعي اللحظي، أم هي إلهام إلهي بحت.

سيارة وراء سيارة، إلى أن امتلأ الخندق إلى منتصفه تقريبًا، قبل أن تتم تغطية البنزين بطبقة مشمع بلاستيكي أخرى.. وظهرت بوادر الجيش الإسرائيلي.. بعد أن ابتعدت وتوارت تريللات البنزين واحتشد المدنيون في مخابئ جانبية منتظرين دخول الخنزير للفرن.

يضحك "شارون" والإسرائيليون عندما يرون ذلك الخندق البدائي الذي يمكن لأي دبابة تالفة أن تعبره بسهولة.. لعلمهم ظنوا أن ذلك السائل تحت المشمع البلاستيكي مياه نتجت عن كسر ماسورة، وليس بنزينًا.. كل هذا لا يهم.. المهم أن قرابة ثلث معداتهم ودباباتهم صارت في قلب ذلك الموقد فعلاً.. فيخرج المصريون من المخابئ ويفعلونها.. تشتعل نار جهنم ويشتعل معها حماس وتكبير المصريين وهم يشاهدون أيديهم العارية تضرم نيران مهلكة في معدات عسكرية إسرائيلية.

وفي سيناء يعبر الجيش الأمريكي القناة ويبدأ الزحف خلف الجيش المصري الزاحف نحو إسرائيل.. لم ترد الإدارة الأمريكية على أي من النداءات والمبادرات المتلاحقة المنطلقة من العالم.. لا مجال للمرح الآن.

هنا يجن جنون جميع المصريين والعرب المقيمين بالخارج.. خصوصًا المقيمين بأمريكا.. فيتفتق ذهن أحدهم عن فكرة جهنمية بحق.

كان اسمه ”حسام إسماعيل منصور“.. يعمل طبيباً في أحد المستشفيات في واشنطن. قام بكتابة رسالة بالإنجليزية بخط يده، مفادها أنه يأسف بشدة ويحزن بعمق على الضحايا المدنيين الأمريكيين الذين سيسقطهم بنفسه عندما يفجر نفسه بعد قليل في أحد المراكز التجارية.. لكن ظلم وقهر أمريكا فاق المدى ولم يعد بيده أي سلاح إلا هذا، لردعها عن محاربة بلاده دونما أي دافع تمتلكه إلا نصره الحليف اللعين إسرائيل.

قال في رسالته إنه الأول، لكنه لن يكون آخر استشهادي.. ولن يأمن أي أمريكي على حياته بدءًا من الساعات القادمة وحتى يوم الدين، في أي مكان، إلا أمام البيت الأبيض.. لديكم القوة أيها الأمريكيان، عصيان مدني.. أوقفوا الدولة.. ومظاهرات حاشدة لها مطلب وحيد، إجبار الإدارة الأمريكية على الابتعاد عما ليس لها به شأن! انسحاب الجيش الأمريكي من الأراضي المصرية فوراً.

العمليات الاستشهادية لن تعرف الرحمة.. شوارع، مستشفيات، محلات، مدارس أطفال، مراكز تجارية.. كل الأماكن.. عدا أمام البيت الأبيض.

طلب منهم في رسالته السماح، وطلب من بني وطنه وعروبته أن يحذوا حذوه ويشعلوا العالم بأجسادهم.

وطبع "الدكتور حسام" ألفي نسخة من تلك الرسالة، ووزعها على عشرة من أصدقائه، لينسخوها بغزارة الأمطار ويغرقون بها العالم.. ومن شاء منهم فليخذ قراره بعدها ويفعل مثله.

بعد مرور أقل من ثماني وأربعين ساعة كان صراخ المواطنين في الولايات المتحدة يكاد يُسمع في الصين، جرّاء سبع وخمسين عملية استشهادية ضخمة، منهم ثلاثة وثلاثين في واشنطن وحدها.. وطوّر أحدهم الفكرة وأصبح هناك بعض التفجيرات المزدوجة، بعد أن يفجّر الاستشهادي نفسه، ينضم إلى المصابين والجثث استشهادي آخر متظاهراً أنه مصاب أو جثة تحتضر، ثم يفعلها عند وصول قوات الشرطة والإسعاف، وبعض من هذه التفجيرات حدثت أمام كاميرات التليفزيون التي وصلت مكان الحادث للتغطية، فحصلت على تغطية مباشرة للتفجير على الهواء بثتها لملايين آخرين.. وتمّ اختطاف سفراء أمريكا والكثير من أبناء جالياتها في عشرين دولة في العالم، رهائن لحين تنفيذ المطلب البسيط الوحيد، دعونا وشأننا!

اشتعل الجحيم في كل مكان.. هنا وهنا وفي كل مكان هناك.

لم تكتفِ جموع بمئات الآلاف بالاحتشاد أمام البيت الأبيض.. بل اقتحموه وحطموا كل ما قابلهم، وأقلعت طائرة الطوارئ الخاصة برئيس أمريكا وعمت الفوضى في البلاد.

كل ثانية أصبح لها ثمن حقيقي.. تم اتخاذ القرار الصحيح دون تردد.. الانسحاب الكامل والفوري من مصر وإعلان حالة الطوارئ القصوى في أمريكا.

مصر تشعل العالم وتكتب التاريخ.

تنزل تلك الأخبار على جيوش مصر وسوريا والعراق والجزائر-التي وصلت بعض كتائبها بالفعل إلى القاهرة- تنزل كالوقود على نار إصرارهم المشتعلة أصلاً، فيلتهب حماسهم ويزداد إصرارهم.. وتوقن إسرائيل أنها صارت وحدها تمامًا.

وتصل الفرقاطات البحرية المصرية للبعد المطلوب، وتتراص.. وتوجه.. وينطلق أول صاروخ بحر - أرض على قلب تل أبيب. العمق بالعمق.

وتصل في القاهرة قوات المنطقة المركزية وقوات الحرس الجمهوري أخيراً وبشائر الجيش الجزائري، لملاقة ما تبقى من الجيش الإسرائيلي لتبيده إبادة كاملة.

وتتقدم برًا قوات مصر وسوريا والعراق داخل الأراضي

المحتلة.. متجهين كالكماشة صوب تل أبيب.

بداية الاستحواذ على إسرائيل.

خطأ.. خطأ كامل. بل بداية تحرير الأرض الفلسطينية.

وفي غرفة كبيرة في مبنى سري في صحراء النقب، كان هناك عشرة إسرائيليين كبيرو السن والرتب في حالة هستيريا كاملة.. كان البكاء واللطم سيد الموقف.. وأصيب أحدهم بنوبة صرع عنيفة، لم يسعفه فيها أحدهم.. قبل أن يقف كبيرهم والانهيـار مـلاً وجهه وكيانه ويتحدث معهم بكلمات قليلة للغاية.. خرجت مرتعشة لكنها احتوت على حقيقة الوضع والمستقبل القريب الأسود الآتي مهرولاً.. ويعطيهم أمره الأخير.. واجب النفاذ.. دون مشورة.

كان المشروع اسمه ”ميكرع هاكل“.

ويتجه كبيرهم هذا صوب جهاز تحكم ضخم كثير الأزرار والشاشات.. ويدير مفتاح من ميداليته في الجهاز، فتدب فيه الحياة.. ويدخل شفرة من تسعة أرقام.

”ميكرع هاكل“ تعني حرفياً: ”قبل أن يضع كل شيء“.

ويصرخ في آخر يبكي ويرتعش.. فيتوقف عن الهستيريا وتلتمع عيناه جذلاً.

ويجاور رئيسه.. ويدخل شفرته المكونة من تسعة أرقام.

المشروع النووي الإسرائيلي.

ويختفي تدريجيًا صوت النحيب من الغرفة.. وينظرون جميعًا بتربق مراقبين المشهد.

ليتقدم الثالث دون دعوة، ليدخل أرقامه التسعة هو الآخر.

فتضيء لمبة حمراء.

وتنتطلق في الغرفة صافرة عالية متقطعة، كصافرات الإنذار.

ويتعالى سباب جنوبي باللغة العبرية من كل من في الغرفة.. وهم يحثون القائد على الإتيان بفعلته.

يضغط بالفعل دون تردد، زرًا من خمسة أزرار متجاورة.

وتبدأ المأساة الكبرى.

ويضغط الزر الثاني.

ويتعالى السباب العبري المحموم.

ويضغط الزر الثالث.

ميلحاماه بن أخيف قوحوط!

والزر الرابع.

أنتوم صوفطام شوهور!

والزر الخامس.

القاهرة - الرياض - بغداد - بيروت - الجزائر.

وداعاً.

obeikandi.com

obeikandi.com

تَقُولُ أُسْطُورَةٌ قَدِيمَةٌ إِنَّ حَارِسَ الزَّمَنِ كَانَ جَالِسًا يَسْتَمْتَعُ
بِمُشَاهَدَةِ الكَوْنِ، وَتَنَاعُمٍ وَتَنَاسُقٍ عَنَاصِرِهِ، وَمُفْرَدَاتِهِ، وَمُكُونَاتِهِ..
فَدَبَّتْ فِيهِ الرِّغْبَةُ فِي أَنْ يَأْتِيَ مَنْ يَجْلِسُ مَعَهُ يُشَارِكُهُ التَّأْمُلَ
وَالِاسْتِمْتَاعَ.. فَقَضَى أَوْقَاتًا طَوِيلَةً فِي مَحَاولَاتٍ حَثِيثَةٍ وَحِيلِ
غَرِيبَةٍ.. حَتَّى حَدَثَ بِالْفِعْلِ أَنْ صَارَ هَذَا الْمَلِكُ حَامِلًا فِي كَائِنٍ
نَقِيٍّ، فَفَرَحَ فَرَحًا شَدِيدًا، شَاعِرًا بِأَنَّ هَذَا الَّذِي بَدَاخِلَهُ يَتَمَتَّعُ
بِالشَّفَافِيَةِ وَالْجَمَالِ، وَسَيُشَارِكُهُ، حَالَ اكْتِمَالِ نَمُوهِ وَمَوْلَدِهِ،
الِاسْتِمْتَاعَ بِالتَّنَاعُمِ الكَوْنِيِّ المُبْهَرِ.

لَكِنْ يَكْتَشِفُ الحَارِسُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ أَمْرًا خَطِيرًا.. يَكْتَشِفُ
أَنَّ هَذَا الكَوْنَ بِجَانِبِ جَمَالِهِ المَكْتَمَلِ، قَدْ خُلِقَ فِي حَالَةِ اتِّزَانٍ
دَقِيقٍ، وَحَسَّاسٍ لِلْغَايَةِ. وَزُنَّ رِيشَةً إِضَافِيًّا كَفَيْلًا بِأَنْ يَهْدَمَ كُلُّ
شَيْءٍ. كُلُّ يَوْمٍ يَمُرُّ، يَزْدَادُ مُوَّ ذَلِكَ الكَائِنِ بَدَاخِلَهُ، وَيَرَى حَارِسُ
الزَّمَنِ الكَوْنَ يَخْتَلُّ اتِّزَانَهُ شَيْئًا فَشِيئًا.. ثَمَّةَ شَرْحٍ هُنَا، وَتَصَدَّعٍ
هُنَاكَ، وَاهْتِزَازٍ هُنَا، وَارْتِجَاجٍ هُنَاكَ. لَمْ تَعُدْ الأُمُورُ كَمَا كَانَتْ.

ارْتَبَكَ الحَارِسُ وَفَكَّرَ كَثِيرًا، وَهَدَاهُ عَقْلُهُ إِلَى أَنْ يَشْطَرَ هَذَا
الكَائِنِ إِلَى اثْنَيْنِ، لِيَعُودَ التَّوَازُنُ لِلْكَوْنِ مِنْ جَدِيدٍ.. فَقامَ بِحِيلٍ

أغرب من تلك التي غرسَ بها جنينَ الكائنِ داخله، وحدثَ بالفعل، وانبثقَ كائنٌ آخر في نفس المكانِ الضيق، فأصبَحَا معًا أولَ توأمٍ يعرفُهُ الكون. وكانَ أولَ ما فعَلَه الكائنُ الجديد، بعدَ انبثاقه من أخيه، أن رَفَسَه دُونَ قَصْدٍ بِقَدَمِهِ في أنْفِهِ بعُنفٍ.. ما أثارَه بشدَّة، مُعتَبِرًا نَفْسَه صَاحِبَ المَكانِ الأَصْلِيِّ، وَأَنْ هَذَا الجَديد هو صَيْفٌ دَخيل. فَرَدَّ تِلْكَ الرُّفْسَةَ، بِلِكْمَةٍ شَدِيدَةٍ في عِينِهِ، شَعَرَ على أثرها بِظُلْمٍ واضطهاد.

عادَ فعلاً الاتزانَ النسبيَّ للكون، وتألَّقَ جماله من جديد، لكنَّ ذلكَ الحارس لم يتبدَّدَ قَلْبُهُ. تِلْكَ التَّحَرَّكَاتِ المَحْمومَةِ بِدَاخِلِهِ، وتلكَ الاضطرابات، جَعَلَتَاه يوقنُ أَنَّ التوازنَ قد عادَ بِالفِعْلِ للكون، إلا أنَّ هَذين، مَنْ بِدَاخِلِهِ، قد اجتمعتَ عندهما كَلَّ الطَّاقَةِ السَّلْبِيَّةِ التي تولدتَ بالفعلِ عندما تَكوُنُ الكائنُ الأول، وترَكزتَ مؤقتًا بِداخلِ الحارسِ عندما تَكوُنُ الكائنُ الثاني، الذي أعادَ خَلْقَهُ الاتزانَ للكون، وخلقَ حنقَهُ مَشَاعَرَ الغضبِ لأولَ مرةٍ في العالم، حبيسةً إلى أن تخرجَ للعالم. لن يلبثَ التناغمُ الكونيُّ أن ينهار، فورَ خُرُوجِهِمَا معًا بالفعل.

كانَ يشعرُ أَنَّهُ مِنَ الصُّرُوريِّ، وبشدَّة، أن يَخْرَجَ الكائنُ الأولُ إلى العالم، قَبْلَ أخيه المُنشَطِ عَنْهُ، ليراهُ ويزدادَ خِبرَةً تُوَهِّلهُ لِامتلاكِ زِمَامِ الأُمُورِ مُسَبِّقًا.

قَامَ الحارِسُ باستعدالِ الكائِنَيْنِ بِدَاخِلِهِ، لِيُضْمِنَ خُرُوجَ الأولُ للعالمِ قَبْلَ الثاني، بِأساليبٍ غَرِيبَةٍ، كانَ أبْسَطُها أنْ أَدخَلَ ثُعبانًا

كبيراً مِنْ فَمِهِ إِلَى أَحشائه مُمَسِّكاً بِذِيْلِهِ، لِيُدْفَعَ الكائِنَيْنِ دَفْعَاتٍ كَثِيرَةً، تَتَمَنَّى خُرُوجَ الأوَّلِ أوَّلًا. وَأثناءَ خُرُوجِ الثُّعْبَانِ مِنْ أَحشَاءِ الحَارِسِ، قَامَ الكائِنُ الثَّانِي مُغْتَاظًا بِعَظْمِ ذَلِكِ الثُّعْبَانِ، فَعَضَّهُ الثُّعْبَانُ فِي رِقْبَتِهِ، وَامْتَزَجَ دَمُهُمَا وَجَرَى فِي الثُّعْبَانِ فَصَارَ سَامًّا لِلأَبَدِ، هُوَ وَذَرِيَّتُهُ، وَحَصَلَ الكائِنُ الثَّانِي عَلَى مَنَاعَةٍ أَبَدِيَّةٍ مِنَ السَّمُومِ، وَتَضَاعَفَ شَعُورُهُ بِالاضْطِهَادِ وَالحَنِقِ.

وَجَاءَ اليَوْمُ المَوْعُودُ.. يَوْمُ الخُرُوجِ.. يَوْمُ الدُّخُولِ للعَالَمِ.. وَحَبَسَ الحَارِسَ أَنفَاسَهُ.

فَانْقَضَ الكائِنُ الثَّانِي عَلَى الأوَّلِ انْقِضَاةً عَنيفَةً مَنَعَتْهُ مِنَ الخُرُوجِ، وَكَادَ أَنْ يَخْرُجَ هُوَ، قَبْلَ أَنْ يَنْقُضَ عَلَيْهِ فِي المُقَابِلِ الكائِنُ الأوَّلُ وَيُزِيحَهُ.. وَاسْتَمَرَ العِرَاكُ عَلَى هَذِهِ الحَالِ، مَا أَدَّى إِلَى تَحْرِيكِ رِيَاحٍ عَاتِيَةٍ فِي الأَرْضِ، اضْطَدَمَ بِعَظْمِهَا بِصُخُورٍ صَلْدَةٍ دَفَعَهَا لِلاضْطِدامِ بِسَيْقَانِ أَشْجَارٍ جَافَّةٍ، فَتَوَلَّدَتِ شَرَارَةٌ تَكْفَلْتُ بِأَقْبِي الرِّيَّاحِ بِاشْعَالِهَا نَارًا لِأوَّلِ مَرَّةٍ فِي عُمُرِ الكَوْنِ.. اشْتَعَلَتِ النَّيرانُ فِي اللِحْظَةِ الَّتِي كَانَتْ عَيْنَ الكائِنِ الثَّانِي وَسَطَ عِرَاكِهِ مَعَ أُخِيهِ مَطْلُوعَةً عَلَى المَشْهَدِ.. فَأَثَارَ شَهَوَاتِهِ وَجُنُونَهُ مَرَأَى النَّيرانِ العَظِيمَةِ الَّتِي تَأَجَّجَتْ.. وَتَوَلَّدَتِ بِدَاخِلِهِ طَاقَةٌ مَهُولَةٌ أَعْطَتْهُ القُدْرَةَ عَلَى دَفْعِ أُخِيهِ بِعَظْفٍ.. وَالخُرُوجِ أوَّلًا.. وَالوُقُوفِ لِمُشَاهَدَةِ العَالَمِ وَالنِّيرانِ الَّتِي خَلَبَتْ لُبَّهُ وَهَامَ بِهَا عِشْقًا.. فَحَمَلَتْهُ الرِّيَّاحُ العَاتِيَةُ إِلَى قَلْبِ تِلْكَ النَّيرانِ، فَكَانَ أوَّلَ مَا فَعَلَهُ فِي الكَوْنِ أَنْ أَمْسَكَ بِعَظْمِ تِلْكَ النَّيرانِ وَأَنْطَلَقَ بِهَا يوزِعُهَا هُنَا وَهُنَا.. وَسُمِّيَ "قَائِظٌ".

ثُمَّ خَرَجَ الْكَائِنُ الْأَوَّلُ.. وَقَفَّ يُشَاهِدُ النَّيْرَانَ الَّتِي تَتَحَرَّكُ
بِعَشْوَاتِيَّةٍ، وَلَمْ يَرْتَحْ لِمَظْهَرِهَا، فَحَمَلَتْهُ الرِّيَّاحُ إِلَى سُحْبٍ كَثِيفَةٍ
أَسْقَطَتْ أَمْطَارًا عَلَى النَّيْرَانِ لِتُطْفِئَهَا، وَانْطَلَقَتْ فِي سَبَاقٍ مَحْمُومٍ
وَرَاءَ كُلِّ قِطْعَةٍ نَيْرَانٍ يَشْعُلُهَا "قَائِظٌ"، الَّذِي يُطَارِدُهُ الْكَائِنُ الْأَوَّلُ
الَّذِي وُلِدَ ثَانِيًا.

اصْطَدَمَتْ عَيْنَا "قَائِظٌ" أَثْنَاءَ مُجُونِهِ بِقِطْعَةٍ عَمَلِقَةٍ مِنْ
الْأَرْضِ هِيَ الْأَجْمَلُ وَالْأَرْوَعُ أَبَدًا. أَلْقَى النَّيْرَانَ مِنْ يَدِهِ، وَوَقَفَ
يَتَأَمَّلُهَا فَاعْرًا فَاه. دَخَلَهَا مِنْبَهْرًا، بِخَطَوَاتٍ حَثِيثَةٍ، وَأَخَذَ يَتَجَوَّلُ
بِهَا وَيُشَاهِدُ. صَارَ يَتَجَوَّلُ إِلَى أَنْ وَجَدَ رَجُلَيْنِ وَامْرَأَتَيْنِ عَلَى وَشِكِ
الزَّوْجِ، لَكِنْ أَحَدُهُمَا كَانَ يَرِيدُ امْرَأَةَ الْآخَرِ لَا امْرَأَتَهُ هُوَ.. لَمَحَهَا
"قَائِظٌ" فِي عَيْنِي الرَّجُلِ.. فَاقْتَرَبَ مِنْهُ وَوَقَفَ أَمَامَهُ، وَنَظَرَ فِي
عَيْنَيْهِ، قَبْلَ أَنْ يَلْوِي رَأْسَهُ صَوْبَ أَخِيهِ وَيَعِيدُ نَظْرَهُ مِنْ جَدِيدٍ
لِعَيْنِي الرَّجُلِ اللَّتَيْنِ تَأَجَّجَتَا نَارًا.. فَنَظَرَ "قَائِظٌ" إِلَى امْرَأَةِ الْآخَرِ
ثُمَّ إِلَى امْرَأَةِ الْحَانِقِ، ثُمَّ إِلَى عَيْنِي الرَّجُلِ مِنْ جَدِيدٍ، الَّذِي
أَخَذَتْ أَنْفَاسَهُ فِي التَّسَارُعِ وَنَاصِيَةِ رَأْسِهِ فِي التَّصَبُّبِ عَرَقًا، فَنَظَرَ
"قَائِظٌ" نَحْوَ حَجَرٍ كَبِيرٍ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْهُمَا وَأَطَالَ النَّظَرَ، ثُمَّ
عَادَ لِعَيْنِي الرَّجُلِ الْغَاضِبِ فَوَجَدَهُ مَحْدَقًا بِذَاتِ الْحَجَرِ، فَانزَاحَ
"قَائِظٌ" عَنِ طَرِيقِهِ لِيَسِيرَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ بِيَطْءٍ وَهُوَ يَنْظُرُ نَحْوَ
أَخِيهِ خِلْسَةً كُلِّ بَضْعِ خَطَوَاتٍ.

وَصَلَ الْكَائِنُ الْأَوَّلُ فِي اللَّحْظَةِ الَّتِي أَمْسَكَ فِيهَا الرَّجُلُ بِالْحَجَرِ
وَرَفَعَهُ سَائِرًا نَحْوَ أَخِيهِ، وَ"قَائِظٌ" يَقِفُ بَعِيدًا مَتَوَارِيًا يَرِاقِبُ.
لَمْ يَدْرِ الْكَائِنُ مَاذَا سَيَحْدُثُ لَكِنَّهُ شَعَرَ بِكَتْلَةٍ مِشَاعِرٍ سَلْبِيَّةٍ

من غضب وغيره وأنانية وشعور بالاضطهاد تفوح من حامل الحجر، فأخذ ينصحه بإصرار أن يعدل عما ينوي فعله، فسَمِّي ”واعظ“.

”قائظ“ متوارياً يترقّب، و”واعظ“ بإصرارٍ ينصح، والرجل بغضبٍ يقترب، وأخوه باطمئنانٍ يجلس.. وحارسُ الزّمنِ يجأرُ غاضِبًا من كل هذا الذي يحدث.

وارتفعت ذراعاً الرّجلِ عاليًا بالحجرِ، وصرخَ صرخةً أزعجت هدوءَ العالم والكائنات، وهو يهوي بالحجر على رأس أخيه ليهشّمه، فتصرخُ الامرأتان صراخًا ملتاغًا طويلًا حادًا، ويضيعُ سلام الكون للأبد.

عُوقِبَ حارسُ الزّمنِ بأنْ نُسخَ منه الكثير والكثير والكثير.. نُسخةٌ واحدةٌ حقيقية، والباقي نُسخٌ افتراضيةٌ موازية.. وأصبح حارسًا للأزمنة كلها.. وصارَ عليه أنْ يتركَ مشاهدة الكون، وأنْ يتفرَّغَ لمراقبة جميع الأزمنة.. وتدوين جميع أفعال الرجل وامرأته وذريتهما، هنا وهناك. ومراقبة وتدوين جميع نتائج تلك الأفعال كاملة.. في الزمن الحقيقي، وفي كل الأزمنة الموازية.

وعُوقِبَ ”قائظ“، ومعه ”واعظ“، بأنْ صارا في عالم أكثرَ دونيةً. لا يُشاهدان من الكون شيئًا، ولا يسمعان، إلا أفعال ونتائج الرجل وامرأته، ونسليهما. فتفرَّغَا لاستمرارِ حربهما معًا، التي وُلِدَتْ بِمَوْلِدِهِمَا.

هَذَا يَغْوِي الْبَشَرَ وَيَدْفَعُهُمْ لِّلشُّرُورِ.. وَهَذَا يَنْصَحُهُمْ وَيَدْفَعُهُمْ
لِّلْبِرِّ.. إِلَى الْأَبَدِ.

obeikandi.com

نظرنا جميعًا إلى ذلك الشخص الذي أعلن أنه سيقتلنا في الحرب، لنجده ذلك الشاب حاصد الألقاب (المصفوع.. المضروب.. المنبطح...) كان قادمًا ليشاركنا الجلسة، ومعه أربعة أشخاص لم أرهم من قبل في المكان، كانوا من هؤلاء الذين يطلقون سؤالف متناهية الطول تدينًا.. أحدهم شاب والثلاثة الآخرون صبية مراهقون.. جاؤوا وجلسوا بهدوء، والأربعة ذوو السؤالف يحملقون في أعيننا مباشرة دون أن يرفعوا أعينهم ولو للحظة.. الأعين تقول كل شيء.. كل شيء.. لن يمر اليوم المتبقي لنا على خير، بشكل أو بآخر، علينا أو عليهم.. وكرر حاصد الألقاب إجابته بعد أن استقر في جلسته أمامنا:

- سؤالك ساذج جدًا يا أختي.. قوانين الطبيعة لا استفهامات فيها.. ضعي الماء في درجة الغليان ستجدينه قد صار بخارًا.. ضعيهم أمامنا في ساحة حرب سيقتلوننا، وإن لم يفعلوا سأستحم أنا بدمهم.

قبل أن يأخذ أي فرد منا أو منهم أي رد فعل، دوى في المكان صوت هو أغرب ما سمعته أذني في الحقيقة.. لو تجشأت الأرض

فلن يكون صوتها عن ذلك الصوت ببعيد.. فصرخت بفرح العديد من الشابات وهبت كثيرات منهن بالفعل مهرولات إلى مصدر ذلك الصوت الغريب المستمر.. فوقفنا بالتبعية في محاولة للفهم، لنرى شخصاً يبدو من شكله وملابسه أنه قادم من عصور الديناصورات، يرتدي أشولة وشعره ولحيته لم يعرفا ماء أو مقصاً منذ خُلِق، وكان مصدر ذلك الصوت الذي لا يتوقف هو آلة نفخ موسيقية طولها قرابة المترين والنصف، أي أنه يحملها بالكاد أمامه وهي تفوقه طولاً.. هي تشبه البوق، وإن يبدو أنها خشبية وتتكون من قطعة واحدة.. الغريب أنها آلة نفخ، ولكن الصوت المنبعث منها مستمر لا يتوقف.. أعرف أن البدو لديهم آلة نفخ لا تنقطع نغمتها أيضاً، ولكن بتكنيك مختلف، حيث ينفخ العازف في مزماره ويلعب نغماته على مفاتيح معينة، فينفخ كيساً أسفل الآلة (أظنه مصنوعاً من جلد الخروف) وبعد أن ينتهي نَفْسُهُ يضغط بكوعه على ذلك الكيس ليعتصره في جانبه، ويخرج الهواء الذي تم تخزينه.. المهارة والتحدي هنا أن مفاتيح النغمات تكون انعكست تماماً حينها، فيفترض بالعازف أن يعكس ضرباته عليها.. لكن هذه الآلة الطويلة جداً ذات الصوت الغريب، كيف لا تنقطع نغمتها.

دبت الحيوية في المكان كله.. العاملون انطلقوا في إعادة رص السجاجيد في منتصف الشاطئ وبين مظلات الجلوس الجانبية، فتكونت ساحة بدائية كبيرة.. ونُقلت جميع الوسائد والطبليات والشموع إليها.. كانت ”ميرخاف“ تتقافز فرحاً، فسألتها عما

هنالك، فقالت لي إننا جميعًا محظوظون كون هذا الرجل -الذي لا تعرف اسمه- ظَهَرَ اليوم.. عرفتُ أنه شخص لا يعرفه أحد.. يظهر في مواعيد عشوائية، ليعطي المحظوظين الذين رأوه حفلًا موسيقيًا طويلًا.. ويلعب تلك الآلة المسماة ”ديديجريدو“.. وعرفت أنها آلة بدائية أسترالية، وسر النغمة المستمرة هو تكنيك يسمى التنفس الدائري بإدخال النَّفس من الأنف ودفعه من الفم، مع تحريك اللسان والخدين بطريقة معينة، إلى أن يخرج النَّفس من الآلة العملاقة، ويكون حينها نَفَس جديد تم ابتلاعه من الأنف، وهكذا.. يساعد عازفها في تنفيذها أن الآلة طويلة جدًا بالأساس.

رأيت في تلك الرحلة أشياء غريبة كثيرة حقًا.

جلس الرجل وجلسنا جميعًا حوله في دوائر كثيرة.. كل من كان لديه آلة موسيقية وضعها في يده أو على فمه، وانطلق الجميع في عزف متناوب وفردى وجماعي.. ألحان كثيرة جدًا لا تتوقف، بعضها عربي وبعضها مصري.. من في يده طبول قَرَع عليها.. من أمامه كوب زجاجي استخدم ملقعة معدنية في طرقتها برتم مناسب.. من أمامه طبلة أخذ يخبط عليها.. من ليس معه شيء كان يصفق أو يغني بأي كلمات أو أصوات أو آهات.

يخبطني كل دقيقة أي شخص ليعطيني سيجارة حشيش مشتعلة.. أخذ منها بعض الأنفاس وأعطيتها لمن يليني، لأتلقَى

خبطة جديدة من شخص آخر بسيجارة جديدة أو زجاجة لا أدري ما بها، لكنني أشرب، وأخط من يليني، وأستلم السيجارة أو الزجاجة الجديدة.. والديديجريدو لا تتوقف عن التجشؤ العميق، والموسيقى المحمومة لا تتوقف.. شعرت بدوران كوكب الأرض حول محوره، وإن زادت سرعته قليلاً.. أردت أن أرفض المزيد من كل هذا الذي أشربه وأدخنه، فشربت المزيد ودخنت أكثر.. استلقيت تماماً على ظهري لأجد السماء تشاهديني.. حقاً لم أتوقع في يوم أن كل تلك الكمية من النجوم موجودة في الكون.. كثير منها كان ينوي الهبوط عليّ ببطء.. فرفعت يدي لأوقفها فارتدت لأماكنها بالفعل.. مررت يدي على النجوم فانسابت معي بالفعل كأنها حبات رمل زرقاء.. فرفعت يدي الأخرى وأخذت أرسم ببطء بالنجوم على السماء.. شعرت أن هذا كثير.. متعة تفوق قدرتي الاستيعابية.. فاعتدلت في جلستي، لأجد جميع الشموع انطفأت.. صار الجميع مجرد أجسام سوداء وسط ليل أسود.. فأتسلم سيجارة حشيش أخرى.. أسحب.. أمرر.. أتلقى زجاجة.. أشرب.. أمرر.. تتجشأ الديديجريدو دون توقف.. موسيقى تعلو ولا تنخفض.. طبول تزيد ولا تقل.. نَفَس.. أمرر.. جرعة.. أمرر.. والأرض تقتلني بسرعة دورانها المتزايدة.. ويتحول الغناء العشوائي إلى غناء جماعي.. أصبح الجميع واقفين يتقافزون ويرقصون على أنغام مُقبضة مألوفة جداً.. أجزم أنني سمعتها من قبل.

فنزَلت على منتصف ظهري العاري صفقة قوية، فاستدرت

منهك القوى برأسي التي صارت تزن طنًا من الفولاذ المصهور..
استدرت بجهد خرافي، لأرى سوادًا لشبح امرأة تمتلك شعرًا
ميدوسًا، وقبل أن أقول أي شيء ضحكت ضحكة ماجنة مميزة،
لأكتشف أنها ”حيزبونة الكلب“، وناولتني كبريتًا وطلبت أن
أشعل لها سيجارة، فكّرت أن أشعلها هي شخصيًا، فأشعلت
العود وكان شكلها وسط الظلام بتأثير اللهب القادم من الأسفل
شيطانياً جهنمياً.. وبعد أن أشعلت سيجارتها قالت وهي تصرخ
وتضحك:

- إنهم يقتلون صديقك الآن!

obeikandi.com

يعود "حازم" إلى اللحظة السابقة لإطلاقه الصاروخ على جسر عبور الإسرائيليين إلى غرب قناة السويس.. يفوق من رؤيته كمن تلقى دلوًا من الماء المثلج في وجهه.. مذعورًا يلهث بسرعة، وإبهامه متجمد على زر إطلاق الصاروخ ينتظر أمرًا بالضغط.. دون أدنى حيرة أو تردد يلغي "حازم" قراره، تاركًا، للمرة الثانية، الأمور تأخذ مجراها الطبيعي الذي يعرفه.. وما زالت مشاهد تلك الرؤيا التي مر بها تجثم على أنفاسه بشدة.

يميل عصا التحكم يسارًا لبيتعد بطائره عن "شارون" وجيشه، مكتفيًا بلّي رأسه وإطلاق بصقة أصيلة من أعماقه عليهم، تلتخ زجاج طائره.. بصقة لن تغير مجرى التاريخ.. ويرجع ببصره أمامه إلى سيناء التي يخترقها حالًا، ليجد هوة دائرية في السماء أمامه مباشرة، تعترض مسار طائره المتجهة إليها بسرعة الصاروخ تمامًا.. قبل أن يأخذ "حازم" أي رد فعل، تخترق طائره بالفعل تلك الهوة المستمرة في الارتجاج، لتستمر بعدها الطائرة في التحليق، لكن بعد أن تغيرت ألوان وملامح كل شيء.. ثمّة شيء ها هنا.. هي سيناء ما زالت، نعم.. لكنه ليس في حرب أكتوبر.

”أي زمن ابتلعتني الآن؟“.

يستمر في التحليق، وينظر إلى الأرض فيفهم كل شيء.. إنه الخامس من يونيو ١٩٦٧.. وما أشبعه من تاريخ! يرى فرقًا من الجيش المصري مبعثرة تنسحب بعشوائية دون تنظيم.. يعرف أن طائرة وزير الدفاع المصري في سماء سيناء الآن، عائدة به من حفل بالإسماعيلية أقيم أمس، ما أدى إلى تعطيل عمدي لجهاز الدفاع الجوي بأكمله، تاركًا السماء مسرحًا لطائرات العدو تلهو به باسترخاء كامل.. يرى طائرات العدو في الأفق تلهو يمينًا ويسارًا بكامل عنفوانها، وتتبارى في اصطیاد عناصر الجيش التي جاءها اتصال يقول ”انسحبوا“ قبل أن يُغلق بعدها الخط مباشرة.

وكأنما أغضبت طائرته طائرات العدو التي امتلكت السماء، تفرّغت جميعها لمقابلته وإكرامه بالصواريخ.. وهو ينحني ويهبط ويعلو.. يتفادى هذا الصاروخ ويميل بطائرته ويعدلها.. إلى أن وجد أمامه طائرة تبدو أقواهم بالفعل.. على نفس خط تحليقه.. ينحرف ”حازم“ فتتحرف الطائرة الأخرى معه.. يعود فتعود.. يعلو فتعلو.. صارا على نفس الخط.. لا مفر.

يقتربان بسرعة النيازك من بعضهما.. لا توجد أسلحة ولا صواريخ في طائرة ”حازم“.. لا يهم.

”لننفجر معًا“.

يزيد ”حازم“ من سرعته.. ليجد الطائرة الأخرى تنحرف

تسعين درجة، بعد أن يهبط عنها صاروخًا وينطلق صوبه تمامًا.
لا مجال للمناورة.. يسحب ذراع Eject من جديد.. وينطلق
”حازم“ كالصاروخ الرأسي من جديد، قبل أن يمارس هوايته
الجديدة، ويهبط بالمظلة هبوطه الثالث، في يوم النكسة تلك
المرة.

يصطدم بالأرض في وسط سيناء، ولم يعد هذا غريبًا عليه..
يفكّ مظلته سريعًا.. ويتحسس معداته ليجد أنه لا يمتلك أي
شيء.

رائحة هزيمة في الهواء.. غبار ساخن مُرّ يصدّم عينيه وشفتيه.

هل يهرول غربًا مع المنسحبين؟ مجرد التفكير في هذا غصّ
حلقه.. يقف حائرًا.. محبطًا.. تائهاً.. قبل أن يتذكر أن البطل
هناك!

ثمّة بطولات كثيرة قمنا بها وسط تلك النكسة، ”حازم“ سمع
هذا من قبل.

يعرف القليل عنها.. لكنه يعرف أنها قد حدثت.. يعرف أن
هذا البطل هو صاحب أبرز هذه البطولات وسط تلك الأيام
المشؤومة.

يختار الاتجاه شرقًا.. بهمة.

يعرف أن تلك الفرقة الآن بقيادة اللواء ”سعد الدين

الشاذلي، المكوّنة من مشاة ودبابات وأفراد مظلات، انقطعت عنها -كسائر عناصر الجيش- جميع الاتصالات بالقيادة العليا.

يركض ”حازم“.. شرقاً.

يرى الشاذلي السماء وقد صارت مسرحاً إسرائيليّاً تماماً.. الطائرات تذهب وتعود باطمئنان.

يركض ”حازم“.. ويلهث.. ويسمع أصوات رصاص وطائرات على ارتفاع منخفض للغاية.

يتخذ ”الشاذلي“ قراراً انتحارياً، لا يمكن أن يفكر به مخلوق.

يركض ”حازم“.. ويُدوي انفجار ضخم قريب منه، يلقىه أرضاً وسط غبار كثيف ودخان وشظايا.

يقرر ”الشاذلي“ أن يتجه بفرقة شرقاً.. سيعبر الحدود.. سيتوغل في صحراء النقب.

ينهض ”حازم“.. منهكاً.. جريحاً.. يركض.. يلهث.

يجري وسط الجبال.. أصوات الطائرات تصمّ أذنيه.. يلتصق بالجبال كل حين حتى تمر الطائرات.. من ممر لممر.. من جبل لجبل.

يحدّث ”حازم“ نفسه.. هل كان من الأفضل أن يطعن ”شارون“ في ١٩٥٦؟ هل ما رآه في ٢٠٣٤ هو نتيجة للتعنة المزعومة بالفعل، أم هي هلاوس؟ أم كلاهما هلاوس؟ وماذا لو

لم تكن هلاوس؟ هل ما رآه آنذاك في المستقبل خير أم شر؟ هل فعل صاروخه في ١٩٧٣ كل هذا فعلاً؟ هل كان من الأفضل أن يطلقه؟ هل أطلقه؟ هل طعن "شارون"؟ هل نبيدهم مهما كان الثمن؟ هل نتركهم وبنبي أنفسنا أولاً؟ هل يفعل أي شيء إذا التحم بفرقة "الشاذلي"؟ هل سيغير هذا شيئاً إيجاباً؟ سلباً؟ هل يتغير التاريخ؟ هل تتغير نتائج المستقبل؟ هل غيرنا ما بأنفسنا؟ ثم السؤال الأبدي، هل هذا حلم؟

ثم يقطع تساؤلاته المنهمرة التي تمزقه صوتٌ هدير عالٍ مستمر من وراء جبل يقابله.. فيلتصق بظهره تماماً في جبل ليتوارى.. لتسطع عليه طائرة هليكوبتر تواجهه تماماً.. ورغم الشمس الواقعة خلفها مباشرة، إلا أنه استطاع أن يرى وجه قائدها ضاحكاً، وهو يصوب أسلحتها إليه.. ويضغط الزناد.

obeikandi.com

ديديجريدو تتجشأ وموسيقى شيطانية تُعزف وطبول تُقرع
وأغانٍ عبرية تُتلى، وظلام دامس، ورأس ثقيلة، وحيزبونة تنفث
خبراً أسود.

أقلّ نسمة هواء كانت تدفعني دفْعاً لا أستطيع مقاومته..
فقط نسمة أخرى من الاتجاه المقابل كانت تمنعني من
الوقوع.. أمرني عقلي أن أخنق هذه الميدوسا الحيزبونة، فلم
أقو على رفع يدي.. بينما يعلو صوت هؤلاء بالغناء أكثر
وأقوى، وتلك الديديجريدو لا ترحم ولا تصمت.

قتلني الرعب على صديقيّ مما قالته بشماته، تلك المرأة..
قررت أن أبحث عنهما، فخرجت قدمي كمن يجرّ هضاباً، وأنا
أقاوم الوقوع على تلك الأرض الراقصة.. ورأسي الفولاذية تكاد أن
تسقط وتخلع رقبتني.

وعرفت في تلك اللحظة تلك الأغنية المألوفة التي يغنونها
كالمجانين.. إنها تلك الأغنية من مسلسل رأفت الهجان التي
كانوا يحتفلون بها في نكسة يونيو.

ما الذي يحدث؟!

أجرجر الهضبتين محافظاً بجهد على توازي.

ها.. ها.. نا ليا ها ها.. نا ليا ها هيه.. هاااا

ومن ورائي ضحكات ”الحيزبونة“ لا تتوقف.

أرى أشباح أشخاص بعيدة.. بجوار المطبخ البدائي.. يبدون في صراع ملتهب مع شخص مرتّم أرضاً، وإن كان يقاوم بعنف غير مسبوق.

ها.. ها.. نا ليا ها ها.. نا ليا ها هاااا.. نا ليا هيه.. هاااا

اللعنة! تبيّنت من ملامح جسده وتحركاته أنه ”أكرم“!

كبّلوه بجهد.. وأنا أجري نحوه بأقصى سرعة تسمح بها ساقان بوزن الهضاب ورأس من فولاذ.. فيرفع ذلك الشبح ذو السوالف الطويلة خنجراً كبيراً بكلتا يديه عاليًا.. ويهوي به على صديقي المكبّل.

جزعاً صرخت باسمه بأعلى صوت.. فخرج اسمه همساً بصوت مبحوح.. وأنا أترنّح وأتهاوى أرضاً.. فأمسكني قبل أن أصل للأرض شخص ما.. وأنا بالكاد أرى وأسمع.. أعتقد أن اثنين سندانى وقوفاً.. وثالثاً رأيته بالكاد أمامي ممسكاً بقلادة ”عمر“، تلك اللبّانة.. وقال كلاماً لم أفهمه بلهجة ساخرة غاضبة كارهة متشفية، وهو يؤرّجها أمامي كالبنّدول.. قبل أن يدبّ

خنجرًا حتى غمده في بطني.. وأدار مقبضه.. ثم سحبه وطعني
طعنة كاملة أخرى.

obeikandi.com

obeikandi.com

الخاتمة

آخر ما حدث بوضوح هو الطعتان.. ومزيج غريب من السخونة والبرودة بداخلي، مع شعوري بأنني صرت صلبًا، بمعناها الوزني ليس المجازي. ومن اللا مكان وجدت طائرة هليكوبتر ترتفع من وراء جبل صغير وتمطرنى بالرصاص وأنا ظهري ملاصق لجبل.. كهرباء عنيفة سرت في جميع موصلاتي الحسية.. والسائل الدافئ اللزج بعضه ينساب وبعضه يتفجر من مكاني الطعتين.. بينما رصاص الهليكوبتر يخترقني ويدفعني في الجبل الملاصق لظهري. يُرجى التنسيق فيما بينكم يا جماعة حول كيفية قتلي وهوية فاعلها، ليس أسلوبًا متحضرًا هذا الذي يحدث!

و يختفي كل هذا تماما، وأرى مشاهد غريبة متداخلة..

أرى أطباءً وممرضات ينظرون إليّ من موضع علوي وهم يصرخون كالمجانين:

- محتاجين دم أكثر.. كيسين كمان.. كيسين كمان.

أرى حلقة الرقص والغناء تتحرك أمامي من جديد بتسارع

تعقيب

جلست مديرة الدار على كرسي مكتبها بعد أن صافحت ذلك الشاب الذي جاءها في مواعده بالضبط، واتخذ هو مكانه في كرسي مقابل. رفعت سماعة الهاتف وطلبت له شيئاً ولنفسها قرفة.. وعادت للترحيب به مجددًا، ثم دخلت في الموضوع:

- الدار هنا فيها خمسة وعشرين ضيف.. صاحبها رجل أعمال، هو عاملها على أعلى مستوى زي ما إنت شايف، بس هو مش عاملها بغرض الربح على فكرة.. وبيتابعنا دايماً وزارة الشؤون الاجتماعية. و... و... شوف عايز تعرف إيه كمان أنا معاك للآخر.

- بصي حضرتك لو مش هيضايقك أنا هحتاج آجي زيارات كثير، مرة أو مرتين في الأسبوع لمدة ثلاث شهور تقريبًا.

ظهرت الدهشة على وجه المديرية، وقبل أن تردّ دخل عامل البوفيه بالمشروبات الساخنة ووضعها أمامهما وانصرف، فقالت:

- إحنا جالنا قبل كدة طلبة بيعملوا أبحاث برضه بس محدش احتاج زيارات بالمعدل ده.. يعني جم مرتين في شهر

وخلص.. إنت البحث بتاعك عن إيه بالضبط؟

فوضع كوب الشاي بعد أن رشف منه رشفتين، وردّ:

- بحث عن كيفية تطبيق آليات تطوير منظومة أنساق
الخدمة المجتمعية لدور المسنين على المستويين الحكومي
والاستثماري.

بدا عليها عدم الفهم، فتمتت:

- تمام.. تمام.

ثم تظاهرت بالتقليب في بعض الأوراق، وقالت دون أن تنظر
إليه:

- خلاص متفقين.. بس يا ريت اليوم اللي هتقابل فيه
الضيوف تكون موجود هنا بين الساعة خمسة وسبعة العصر..
ده أحسن معاد.

- طيب، فيه أي حاجة خاصة المفروض أعرفها بخصوص أي
حد من اللي هقابلهم؟

نظرت إليه بعدم فهم، فسألته باستفهام حقيقي:

- حاجة زي إيه يعني!؟

- يعني.. إن فلان ولاده مش بيزوروه من سنين وبلاش أجيب
سيرتهم.. إن إعلان كان من أبطال الحرب ويحب يحكي عنها..

كده يعني.

فأخذت تنقل عينيها بين السقف والباب كأنها تفكر، بينما هي تبحث عن أي إجابة تجعلها تبدو كأهل لمنصبها، فردت:

- هو عمومًا كده، تقريبًا كل اللي في الدار هنا محدش بيزورهم من قرايبهم.. فيه ناس ولادهم بيزورهم من السنة للسنة، والباقيين مفيش ولا زيارة.. وبينسطوا جدًا من زيارات طلبة كلية الخدمة الاجتماعية اللي زيك.

ثم تذكرت شيئًا يمكن قوله لتبدو كعميقة متمرسة، فقالت بصوت خفيض وهي تفتح عينيها عن آخرهما وهي تقترب:

- وكلهم عندهم زهايمر!

- قصدك الزايمر.

- أيوه.. منا قلت عندهم ألزهايمر.. كلهم فوق ٨٠ سنة فمش محتاجة ذكاء يعني!

هز رأسه واستأذنها أن يبدأ حينها في التجول في المكان، لأخذ ملاحظات مبدئية تساعد في البحث الذي يعمل عليه، ورحبت هي بشدة كونه سيتركها أخيرًا.

أخذ الشاب يتجول في المكان وهو يدوّن ملاحظات عامة، وصعد طابقاً وأثناء سيره وجد باباً فخمًا موضوعاً عليه لافتة "مكتبة"، فأدار مقبضه بهدوء دون طرق، ودلف إلى المكان الذي احتوى على هيبه لم يتوقعها.

كانت المكتبة شبه المظلمة عبارة عن قاعة خماسية، تحتل أربع حوائط منها أرفف عالية مليئة بالكتب من الأرضية للسقف، وكانت الأرضية خشبية تصدر صوتاً رخيماً مع كل خطوة وَصَعَهَا عليها.. ومن أماكن عدة كان دخان بخور زكيّ الرائحة ينساب في نعومة، المهيب في الأمر أن الثريات كانت مطفأة، وكان مصدر الضوء الخافت الوحيد في المكان، هو شمعة وحيدة على طاولة خشبية من طاولات المكتبة، يجلس أمامها رجل عجوز لم تسلبه سنّه الطاعنة أي مهابة، بل أضافت له الكثير.

كالمسحور تقدّم الشاب باتجاه العجوز بخطوات بطيئة، إلى أن صار واقفاً أمامه تماماً، ولم يلتفت له الرجل أبداً. ألقى السلام، ولم يتلقَ رداً. وبتفهّم كامل ظلّ الشاب واقفاً مكانه عاقداً كفيه أمامه دونما أن يحملق في الرجل، إلا من نظرة اختلسها للرجل الذي أضاءت الشمعة وجهه وتجاعيده ولحيته البيضاء وسط الظلام. لم يكن الرجل يقرأ، بل كان يكتب بانهماك في كشكول ضخم. وبعد دقائق بدا أن الرجل انتهى من الكتابة فوضع القلم، وأمسك بعجلتي كرسيه المتحرك ودفعه للخلف وحرّك الكرسي باتجاه حائط ضغط مفاتيح الإنارة به، لتضيء

المكتبة، ما جعل الشاب في حيرة بعد أن صار يقف وحيداً. واتجه الرجل مجدداً بكرسيه المتحرك لأحد الأرفف العملاقة، لينهمك في البحث عن كتاب معين، إلى أن وجده فسحبه وعاد بكرسيه مجدداً لمكانه الأول أمام الشاب المرتبك.. فأطفأ الرجل الشمعة بإصبعيه، وسند ظهره للخلف، ووضع ذراعيه على مسندي كرسيه، ضاماً قبضتيه أمام وجهه سانداً ذقنه عليهما، وقال للشاب بجديّة:

- افضل!

”أيّ الزايمر مصاب به ذلك الرجل قويّ الشكيمة؟!“

ودون أن يغير الشاب من وضعه واقفاً، انطلقا كلاهما في حديث حميم بدأ بغرض الزيارة، وتفرّع إلى نواحٍ كثيرة أذابت جميع الثلوج الموجودة وغير الموجودة. فسند الشاب على طاولة أخرى وعقد ذراعيه أمام صدره وشبك ساقيه كالمقص، فلمح نظرة حزن لا تُخطئها عين في الرجل المسنّ، الذي سأله حينها عن اسمه، فأجاب الشاب:

- ”حازم“.

فهزّ الشيخ رأسه متأماً واغرورقت عيناه بالدموع، وتمتم:

- سبحان الله!

شعر ”حازم“ بشفقة ما، لكنه لم يسأل، فأضاف الشيخ بحزن:

- نفس الشبّه.. والحركات.. والوقفه.. وكمان الاسم!

- مع مين؟

- اسمك على اسم ابني.. الله يرحمه!

ارتبك ”حازم“ ولم يدرِ ماذا يفعل، فأراد تغيير الموضوع،
فسأل:

- هو حضرتك بتكتب إيه في الكشكول ده؟

فردّ الشيخ بتماسك:

- رواية.

فسأله ”حازم“ مجدداً:

- اسمها إيه؟

فابتسم وعيناه تشعان حيوية من جديد، وردّ:

- كنت فعلاً محتار أسميها إيه.. بس بعد ما شفتك، خلاص
قررت!

وأخذ يقلب الصفحات بالدفعات، إلى أن وصل للصفحة الأولى
التي كانت بيضاء فعلاً.. وأشعل الشمعة مجدداً بكبريت
يجاوره على الطاولة، ومجرد اشتعال الشمعة انطفأت الثريات
من ذاتها، فنظر ”حازم“ لمفاتيح الإنارة تلقائياً ولم يجد أحداً
هناك، فالتفت جزعاً للرجل، الذي بدا في الظلام على ضوء

الشمعة شخص آخر تمامًا، بجديته وانهماكه وصرامته المخيفة. جاوره "حازم" واقفًا كي يقرأ ما يكتبه الرجل، الذي أخذ يكتب ببطء شديد وخط حسن، عنوان روايته:

"وعسى أن تكرهوا شيئًا".

وفي أسفل الصفحة أضاف:

تأليف: أنور عبد الحق.

وشعر "حازم" بالحروف تتحرك وبالكتاب يجذبه للتخليق إليه.. دوار ساحق ألم برأسه.. حاول أن يستند إلى أي شيء، فلم يجد غير دخان البخور المستمر في الازدياد كثافة تعميته.. شعر بنفسه يسبح في الهواء وينجذب بعنف إلى داخل الكتاب، حاول أن يصرخ فلم يطعه صوته.. وقبل أن تبتلعه صفحات الكتاب أمسكته يد الشيخ القوية، ويتدد الدخان الكثيف من أمام وجهه قليلاً، وينظر إلى "حازم" نظرة مطمئنة.. ويهز رأسه قليلاً ألا يقلق.. قبل أن يترك يد "حازم" الذي يبتلع الكتاب ويدخل "حازم" في إعصار عنيف ينتهي بأن يجد نفسه ملقى أرضاً من جديد.. في مكان وزمان لم يتخيل أن يكون فيهما أبداً.

بتكتب رواية أو قصص أو مقال ..
بالفصحى، بالعامية أو حتى بالإنجليزية ..
بتحب تكتب ، أو تعرف حد بيحب يكتب ، كلمنا ..
هنعمل كل اللى نقدر عليه عشان نساعدك تحقق حلمك
وتكون كاتب معروف ..
لأن في كيان ، للإبداع مكان ..

اتصل بينا على :

محمول: 01005248794 - 01001872290 - 01000405450

أرضي: 0235688678

www.kayanpublishing.com

وابعتلنا على :

info@kayanpublishing.com

kayanpub@gmail.com

وتابعنا :



[kayanpublishing](https://www.facebook.com/kayanpublishing)



[kayan.publish](https://twitter.com/kayan.publish)



[kayanpublishing](https://www.pinterest.com/kayanpublishing)



[kayan_publishing](https://www.instagram.com/kayan_publishing)